لؤي عبد الإله

أحلام الفيديو

الأعمال الكاملة

5

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

أحلام الفيديو

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: لؤي عبد الإله

الكتاب: أحلام الفيديو (قصص) ـ الأعمال الكاملة 5

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/ يونيو 2025

الطبعة الأولى: دار الجندي، دمشق ـ سوريا 1996

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياءAlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.

"ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 5

لؤي عبدالاله

أحلام الفيديو

قصص

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفهرست

الحارس الجليدي 7
قبلة الحياة 15
مدرسة المكارم 25
أحلام الفيديو 35
كفاءة من نوع خاص 45
أشجار السدر 67
حالة حصار 73
حكايات كليلة ودمنة المفقودة 83

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الحارس الجليدي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ما زال الشك يراودنا، كلما التقينا، بحقيقة ما جرى في تلك الليلة، وعندما يسترجع أحدنا بعض أحداثها، يكتنف جلستنا الصمت والوجوم، فتلتصق أعيننا بدرفة الباب، متوقعين تململه في أي لحظة، ليظهر لنا جاسم سالما معافى.

كانت أحاديثنا تدور، غالبا، حول المعسكر الذي قضينا فيه خدمتنا الإجبارية؛ هناك تعرَّفنا إلى بعض؛ وهناك اقتسمنا معا صنوف الإذلال والمهانة على أيدي ضباطه وعرفائه. لكن انقضاء فترة طويلة على تلك التجربة القاسية، والانغماس في الحياة المدنية الرخية، خفف من آثارها في نفوسنا إلى درجة أصبحت فيه موضوعا للتندر والسخرية، وأصبح جلادونا المرعبون مخلوقات مضحكة بلهاء. هكذا كنا نقوم بالانتقام منهم، بطريقتنا الخاصة، بعد أعوام عديدة على تخلصنا من جبروتهم.

وكم ظلت تلك التفاصيل تتبدل في ذاكرتنا، مما جعل بعضنا مصراً على وجود شجرة التوت الواقعة قرب السجن، مقابل أولئك الذين ما انفكوا ينكرون وجود أي شجرة فوق أرض المعسكر كله. إلاّ أننا جميعا كنا متفقين على شيء واحد: في تلك الليلة الصقيعية، كنا معا في السجن، نراقب من قضبانه الغليظة جاسم وهو يؤدي نوبة حراسته.

كان البرد يحفر طرقاته عبر عظامنا في تلك الليلة بدون هوادة، تتغلغل الريح عبر جدار السجن المغطى بقضبان

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متصالبة، لتعبث بنا وبأغطيتنا كيفما تشاء، ولتجبر كلا منا على الالتحام بالآخرين. على رغم ذلك كنا من وقت إلى آخر نزيح الأغطية عن وجوهنا لنتابع جاسم وظله بشغف في حركتهما البندولية الرتيبة.

ولم يكن لزاما على جاسم أن يقوم بواجب الحراسة، في تلك الليلة المشؤومة لو أنه قبِل بالبقاء معنا، متحملاً قراد السجن وبراغيثه أسبوعا واحدا، متقبلاً بأريحية جز شعره، بدلا من رفع سبّابته للعريف جمعة موافقا على عرضه بالإفراج عمَّن يشارك في أداء بعض المهام الطارئة.

لا بدّ أن العريف، كان مستيقظا أثناء ذلك، يتابع جاسم من نافذة حجرته المضاءة، حتى وقوع الحادثة، يسكنه خوف من قدوم الضابط المسؤول، إلى موقع السجن إن هو سمح للآخر بالمضي إلى داخل الثكنة أو إعادته إلينا. ولا أحد يستطيع إقصاء الاحتمال في مراقبة ذلك الضابط لجاسم من غرفته المطلة على المعسكر، ولعل المسافة الفاصلة بينهما كانت تتيح مشاهدة ذلك الحارس المثالي؛ كرة تتحرك بانتظام مثير للدهشة بين طرفي ساحة التدريب الفسيحة.

عبر النافذة بدا لنا وجه جاسم من دون أي تبديل؛ الصرامة نفسها، والحزن نفسه، وكأن الأشياء عنده لا تختلف: أن يكون مع حسناء؛ في بار دافئ؛ أو في حفرة باردة. أهم شيء لديه أن يكون معنا، وأن نجنّبه اتخاذ أي قرار، إذ ليس عليه سوى تنفيذ ما نقرره بحماسة وجرأة غريبتين. لذلك جاءت موافقته على تركنا في السجن، والمضي لتأدية نوبة حراسة، أمرا عسيرا على الفهم أو التقبل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

برّر بعضنا، بعد مرور زمن على وقوع الحادثة، سبب ذلك التحول المباغت في سلوك جاسم إلى مرض النظافة الذي ظل مرافقا له طوال فترة الخدمة العسكرية، إذ ما أن يقدَّم له الطعام إليه حتى يمضي في تنظيف ملعقته وصحنه بحرص كبير، بمنديل أعدَّه خصيصا لهذا الغرض، ولا يرضى باحتساء أي شراب، قبل القيام بتنظيف كأسه، تنظيفا مبالغاً فيه، فما بالك أن يوضع في سجن مكتظ بالنزلاء والقمل والأوساخ.

لكن أولئك الذين راقبوه طويلا أثناء نوبة حراسته لهم آراء مختلفة. زعم أحدهم أنه كان يشاهد شخصا آخر، مختلفا عمن كنا نعرفه. ولكأن موافقة جاسم على مغادرة السجن بدوننا قد زرعت فيه روحا مناقضة لروحه: تحت سماء موشحة بحمرة كابية، ووسط عويل رياح قطبية، اندفع صديقنا في تأدية واجبه، مغلفا بمشاعر عزلة مطلقة، غير آبه بصفحة الجليد التي بدأت تغطي أرض المعسكر الندية.

وكم يبدو سبب سوقنا إلى السجن غير قابل للتصديق عند ربطه بتلك الحادثة. فقد اعتاد الكثير من الجنود على التسلل إلى قرية قريبة من المعسكر لقضاء الليل مع نساء الغجر، والعودة فجرا إلى ثكناتهم. لكن احتمال الوقوع بيد إحدى دوريات الانضباط العسكري كان قائما دائما، وهذا ما يجعل المغامرة أكثر إثارة. رافقنا في المرة الأولى أحد الجنود المقيمين قرب القرية، وفي المرة الثانية تسللنا من دون دليل، فكنا صيداً سهلاً لإحدى تلك الدوريات الليلية.

هل تسرب النوم إلينا أخيرا، أم أن التحول الذي طرأ على السماء قد خلق في نفوسنا هذا الوهم؟ كانت قاعة السجن على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حالها حيث بقع الضوء المتسرب إليها من الخارج تكشف عن كتل من الأغطية موزعة بفوضى فوق أرضيتها، وينبعث من تحتها همس وشخير.

اقتربنا بتردد صوب جدار القضبان الفاصل بيننا وبين المعسكر. كان لون السماء النحاسي قد اختفى، وحل محله بياض منطفئ، موشح باللون الرمادي. وفي طرف الكون الأبعد، خفَّت العتمة قليلاً، موشية بقرب انبلاج الفجر. كم بدا لنا المشهد شبيها بشريط سينمائي، يدور حول كوكب منبوذ مغلف بطبقات هائلة من الغيم.

ها نحن، وللمرة الأولى في حياتنا، نشاهد ثلجا: ثلجا على هيئة صفائح شاقولية وأفقية، منتشرة في كل مكان. وما سمح لنا بالتملي في الرؤية، توقف الريح عن الحركة، وكأنها هي الأخرى قد جمدت، وتحولت إلى جليد لا مرئي. كانت أطراف شجرة التوت ساكنة بجلال، مغروزة في أحشاء الفضاء المتكلسة، تنطلق منها في الفينة والأخرى بضعة غربان، فتحلق قليلا حول الشجرة، ثم تستقر فوقها بعد أن تنفض عنها نثار الصقيع.

لا بدّ أن لوثة قد أصابت حواسنا، عند مشاهدتنا جاسم وسط ذلك العالم، جعلتنا عاجزين عن التعرف إليه أو مناداته. فكأنه في خطواته المنتظمة بين طرفي الساحة كائن ينتمي إلى مملكة هذياننا وكوابيسنا، لا صلة بحقيقة واقعنا. كانت بندقيته مشرعة نحو السماء، ينتصب فوقها خيط جليدي رفيع معلق في الفراغ، في وقت ظلت فردتا جزمته تضربان الأرض بقوة فترجِّع الجدران صدى إيقاعهما، لتعمق إحساسنا بحضوره الوهمي.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وحينما بدأت سرعة حركته تتضاءل ومساره يقصر تدريجا، راح كل منا يتنبأ في ذهنه بموقع توقف ذلك الرقّاص عن الحركة.

فجأة، وقرب الشجرة الوحيدة انطلقت صرخة مجلجلة، لكن الجليد كتمها بأصابعه القاسية، ثم حوَّلها في الفضاء إلى كتلة ثلجية، مشعشعة بنثار أضواء المصابيح البعيدة.

ستمر سنوات قبل تسرب الشك إلينا بحقيقة وجود السجن، وسنوات أخرى للشك بوجود ذلك المعسكر، ولا بدّ أن اليوم الذي سنبدأ فيه بالاختلاف حول حقيقة صديقنا الجليدي غير بعيد جدا.

لندن، صيف عام 1991

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قبلة الحياة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان البحر منذ الصباح متشحا بالبياض، ومن الشرفة راح أحمد يلاحق ذؤابات الموج العاتية متدافعة بإيقاع رتيب صوب الشاطئ، الذي يفصله عن ناظره خط من البيوت. فجأة تسرب إلى جسده خدر لذيذ، حينما لمست مليكة كتفه، التفت إليها، فواجهته غابة شعرها الأبنوسي، منسدلاً فوق صدريتها الناصعة البياض، وعلى عينيها تراكم عناء النهار. همست، "هل نذهب إليه الآن؟". "لكنك تحتاجين إلى قليل من الراحة". "لا أحتاج إلاّ إلى غسل وجهي".

يتابعها وهي تنسل من بين يديه، فيخفق قلبه، لكأنه سيفقدها دهرا، أي قسمات سيرتدي وجهها بعد دقائق؟ وأي لون ستكتسي بشرتها؟ يتأملها وهي تتقلب من لحظة إلى أخرى مثل تقلب درجات الزرقة فوق سطح الأبيض المتوسط.

لم يكن حصولهما على هذه الشقة إلاّ بضربة حظ حولت حلمه الطفولي حقيقة راسخة، فكم رسم البحر المتوسط خلال سنوات صباه شبيها بتمساح مستلق على ظهره، ولوَّنه مرارا، مستخدما كل أنواع الأصباغ. انتابه الشك عندما أخبرته مليكة بحصولها على عمل وسكن في آن، لكنه اعتبرها مزحة ثقيلة حين أكدت بأنهما يحتلان بناية واحدة مجاورة للبحر.

ظهرت أمامه مرتدية فستانا صيفيا مهلهلا. قالت ضاحكة: هل سيسر صديقنا بألوان هذا الثوب؟ ثم دارت بخفة حول نفسها مخلِّفة وراءها أثقال ساعات النهار الطويلة، ناثرة في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الهواء فراشات بيضاء. منذ انتقلا إلى هذه الشقة وهما لم ينقطعا يوما عن الهبوط إلى الشاطئ، ليمضيا صامتين في خطواتهما جنب أمواج البحر المتكسرة تحت أقدامهما العارية، وكأن علاقتهما الخاصة بالبحر قد شدتهما إلى بعض بأواصر خفية. يقول لها، لنطلي البيت كله باللون الأزرق، تقول له، ليكن بيتنا امتدادا له، فيجيبها، لنرصِّع سريرنا بأصداف البحر ونجومه.

أغلق باب البيت وراءه، ثم تبعها وهي تعبر الشارع، ذراعاها ملتفان كالعادة حول صدرها، وعيناها غارقتان في متاهة لا مرئية. اجتازا بيوتا قرميدية، وسط درب ترابي ضيق، يهبط دُرجاً صوب البحر. شد أحمد انتباهها لذلك الجدار المتألق بالياسمين. مررت كفها في الهواء فوقه، همست باندهاش، "أبيض كالثلج".

ينفتح الأفق له على هيئة سراب متماه، فاصلا حافة السماء المتأججة بالزرقة الباهتة، عن عنان البحر الصاخب، تتهادى طيور النورس أمامه، وريقات بيضاء شفيفة فوق جحافل الموج الغاضب، حيث يرجِّع الفضاء إيقاع هديرها، وهي تتحطم قرب الساحل، متحولة إلى صف من الأرانب البيضاء المتسابقة نحو الشاطئ، لكنها ما تلبث أن تنقلب إلى زبد أبيض ناعم، فيطفو فوق الرمل باستسلام كلي، بينما يجذب البحر بعضه الآخر بقوة إليه. "اليوم، لون الماء أخضر". "بل رمادي". "إنه يتنقَّل بين اللونين"، أضافت مليكة، وهي تلاعب بقدمها الأيمن رغوة الماء المترجرج فوق الشاطئ.

ظلت عيناه تتابعان أمواج البحر، منذ أول تشكلها قرب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأفق، فبلوغها الذروة، وحتى انسفاحها تحت قدميه، دورة تتبع أخرى، لكن عيني زوجته كانتا مبحرتين بعيدا عنه، وحينما أشار بيده إلى ثلاثة صبيان يقفون في لحظة تأهب لقدوم موجة عارمة، ستدفعهم بقوة صور الشاطئ، التفتت إليه بانذهال، لكأنها تستغرب لوجودها الآن قربه، لكنها استجمعت شتات نفسها بسرعة، فمسَّدت برقة على شعره الكث، راسمة على شفتيها ابتسامة متكلفة، وفوق زجاج نظارتيها السوداوين ظل الموج الأبيض يتدافع بدون رحمة. أراد سحب النظارة عن عينيها بيده اليمنى، لكنها حركت رأسها إلى الخلف بغضب، صاحت بصوت جريح، "توقف". "أنت تبكين؟". "هذا أمر لا يخصك"، أجابت بحدة، ثم انطلقت في الخطو، ضاغطة بقدميها فوق الرمل المبتل.

اجتاحته مشاعر متناقضة راحت تتداخل في خلايا روحه صعودا ونزولا. ها هو يمشي وراءها تاركا بينه وبينها مسافة قصيرة، يتابع بشغف قامتها الرشيقة الهيفاء؛ خصرها النحيف ووركها المقوس. تملؤه الرغبة بالمضي إليها سريعا، الاعتذار لها، ثم إمرار أصابعه فوق ظهرها المستقيم، لكن شعورا بالمقت والكراهية لها عصف به بعد لحظة واحدة، جعل أنفاسه تلتهب في صدره. إنها ما زالت تحبه. بعد مضي خمسة أعوام على موته، ما زال مشهد البحر الغاضب، يوقظ فيها ذلك الوله المجنون به، رغما عن خياناته الكثيرة لها؛ قسوته وفظاظته معها. تقول له في لحظة انشداد خالص ببعضهما، "ما رأيك لو نسمِّي طفلنا الأول مراد"، وحينما لمحت الشحوب على وجهه، أدركت مبررة، "كنت أظنه صديقك المقرَّب".

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يراقبها، وهي تطوف في عالمها الممغنط، تاركة له آثار أقدامها العارية فوق الرمل حيث ما تلبث رشات الماء أن تبتلعها تدريجا. تنحني من وقت إلى آخر لالتقاط محارة غريبة الشكل، يغمره إحساس عميق بالوحدة، بالجدب والانقباض، فتتقلص أحشاؤه، وينحبس الهواء في صدره. غمره، وللحظة واحدة، شعور بالندم لترك بلاده. لكن فكرة عدم الالتقاء بمليكة استفزت في خلجاته كثبانا من الوحشة والفراغ. في تلك اللحظة فقط، وكأنها كانت تقرأ ما يمور في خضم جحيمه، توقفت عن المشي، التفتت نحوه، أمعنت النظر إليه، ثم فجأة مدت ذراعها له.

انزلق زوج من النوارس قربهما، عائمين في الفضاء بانسيابية مطلقة، مطاردا أحدهما الآخر بشغف وتمنُّع في آن. على الشاطئ توزعت مجاميع صغيرة من الناس، بعضهم يسكن قريبا من بيتهما. تبادلا معهم التحية عن بعد، وهما يتابعان تجوالهما اليومي. قالت مليكة، "السباحة خطرة اليوم". "البحر كان هائجا مثل اليوم..."، تمتم أحمد بدون أن يكمل جملته. فكأن المسرح الذي وقعت فيه حادثة غرق مراد متماثل مع حالته اليوم؛ البحر في نفس غضبه؛ زرقة السماء نفسها؛ الشمس الجارحة؛ السراب نفسه... ستظل تردد، طويلا بعد خروجها من دوامة الجزع العميق، "كان ممكنا إنقاذه لو كنت قربه"، لكنها تستدرك أحيانا، "إنه القدر على أية حال"... كم مضى عليهما قبل أن يلتقيا مرة أخرى؟ إذ ظلت، أثناء فترة عزلتها، ترفض رؤيته، وحينما رجعت إلى دراستها استمرت تتجنب لقاءه. من بعيد كان يراقبها، مكتفيا بمشاهدة هيئتها عن كثب بدون أن يجعلها يوما تنتبه لوجوده، لكأنها أيقونة معلقة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وسط وهران، يتحدد بها موقعه: أنا الآن شمالي بيتها. سيارتي الآن تقع إلى شرقه. أمشي الآن إلى غربه... تتحول المدينة إلى جرح أزلي مزروع في شغاف روحه، وتصبح مليكة، خلف قرنيتي عينيه، نافورة مشعشعة بالسحر. ستضحك بعد سنوات حينما يخبرها بتفاصيل جنونه قائلة بافتخار وخبث، "كنت أعلم".

مرا بطفلين منغمرين في بناء قصر فوق الرمل. مضت مليكة إليهما بخفة، قرفصت بينهما، وراحت تحاورهما حول عملهما، تتبادل الحديث، من وقت إلى آخر، مع أبويهما الجالسين تحت مظلة مغروزة بالرمل. كان بإمكانه أن يسمع ضحكاتهم وأصواتهم تتداخل مع بعضها حتى بعد أن خلَّف ذلك المشهد وراءه. كانت الشمس آنذاك تستقر بين الأفق وسمت السماء ولم يبق أمامهما للتمشي سوى مسافة نصف ميل، حيث ينتهي الشاطئ المقوَّس على جرف حاد، تنبت على قاعدته صخور حادة. توقف بانتظار قدومها، ها هي تندفع مهرولة إليه بمرح، رغم احتجاج الطفلين، تحرك بذراعها لهما، "غدا سأقضي وقتا أطول معكما". ثم رمته بابتسامة مشرقة. قال له جاره الموسيقي رشيد يوما، "تعال غدا للعشاء، فرقتنا ستتدرب على أغنية جديدة". بعد تردد طويل، خرج من شقته بدون حماسة، ثم أخذ المصعد إلى الطابق السابع. قالت زازة زوجة رشيد، "دعوت ابنة خالتي أيضا". لكن ذلك لم يخلق في نفسه أي فضول إذ ترسخ في ذهنه قالب واحد لنساء وهران محدد بعنصر واحد: التصنع. وسط ضجيج النقاشات وأنغام البونجو المتداخلة بضربات الدف رن جرس الباب. قالت زازة بابتهاج، "إنها مليكة".

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم يكن هناك سوى عدد قليل من زوار البحر قد توغلوا خلف شريطه المزبد، إذ ظل أكثر السابحين قرب الشاطئ، يتلقون صفحات الموج اللينة ببهجة، لتقذف بهم صوب البر. فجأة بانت لهما غمامة بشرية مستقرة عند حافة الشاطئ. صاحت مليكة بقلق عارم، "لنسرع".

انفتح لهما طريق عبر تلك الدائرة المتحلقة حول غريق، أخرِج تواً من اليم، حينما نبس أحمد مشيرا لزوجته، "إنها طبيبة". اتقدت العيون صوب مليكة وهي تجثو قرب الشاب الشاحب. صاحت لصديقه الذي ركا رأسه في حضنه، "ابتعد عنه". كانت عينا الغريق جامدتين، نصف مفتوحتين، وفمه منفرجا قليلا، حيث لا نأمة تصدر منه، عدا تلك الذبابة التي راحت تتنقل بولهٍ فوق وجهه وصدره. انتاب أحمد إحساس بأنه كان يراقب دمية، وأن ليس ما يراه سوى مشهد هزلي، وحينما صحا من وهمه، شاهدها منكبَّة في صراع جنوني مع شراك الموت. من أين جاء هذا الفتى؟ ماذا يفعل أهله في هذه اللحظة؟ كيف اختار هو وأصدقاؤه هذا الموقع بالذات؟ أسئلة تولِّد أخرى. ينقل عينيه بين أصدقائه المشلولين تحت وطأة الصدمة، وبين أولئك الأغراب المتابعين بفضول لما يجري أمامهم. كانت مليكة تنضح عرقا غزيرا، ملامحها اختفت وراء تلك الطاقة المندفعة في كل الجهات، ولا يستطيع أن يميز شيئا منها سوى شعرها الأدهم المنسدل فوق وجه الغريق. سيقول صديقه الظريف مراد متولها بعد أن التقى بها في بيته، "لون شعرها مثل لون الغراب". وهو الذي يستطيع ارتداء أي شخصية تميل لها المرأة، اكتشف منذ الوهلة الأولى ما سيجعل مليكة مأسورة به: الصمت. ومن زاويته راح مراد يشرنقها بخيوط غامضة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ليمتص شيئا فشيئا ذلك الميل الوجل الذي أبدته مليكة له... ها هي الآن توغر شفتيها بشفتي الغريق، مرة أخرى، تفتح بكلتا يديها فمه، ثم تنفخ في عروقه طويلا، حتى تمتلئ رئتاه بأنفاسها الحرى، لتضغط من بعد بكفيها المتعاضدين على صدره. اخترقت وعيه، مثل رصاصة، تلك الحقيقة التي ظلت غائبة عن طويلا: في الظلمة فقط كانت مليكة تقبّله، وكم كان يجدها امرأة أخرى آنذاك، لا علاقة لها بامرأة النهار، كأن الظلمة توقظ فيها صفاء الشهوة وتأججها، وفي النهار تستيقظ الموسيقى والطفولة فيها. كم عزى ذلك للتربية المحافظة التي تلقتها في طفولتها، على يدي أبيها المتزمت، وكم كان مغفلا... ها هي الآن أمامه، لبوة جريحة تدافع عن صغارها بلا هوادة، تغرز بأسنانها في لثة الغريق، تضخ فيه نسمة الخلق، دون جدوى، وحين حل الضجر وفقدان الرجاء، شرع بعض المتفرجين بالانفضاض... آنذاك، وفي لحظة التحام مطلق بين مليكة وغريقها، انطلق زفير خافت من ذلك الجسد اللين، وعندما وضعت رأسها على صدره، صاحت بوحشية، "الحياة عادت له".

التفتت صوب أحمد، بحثا عن ذلك الإعجاب الذي تلقاه منه دائما، ولدون سبب، لكنها، ولأول مرة، وأمام فعل خارق كهذا، كانت تجده، نائياً، غائبا، عنها كليا.

لندن، ربيع عام 1993

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مدرسة المكارم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قال هادي بنبرة جادة جعلت آذاننا ترتفع بكل خنوع صوبه، "سأخبركم بسر خطير يقلب حياتكم رأسا على عقب". لكنه بدلاً من إفشائه لنا، ظل صامتاً، ينقّل بصره بين وجوهنا المغبرَّة، المستعرة بقيظ تموز، متمتعاً بتقلبنا أمامه فوق مجمرة الفضول المتزايد، "هناك شرط واحد عليكم تنفيذه، قبل أن أنطق بحرف واحد" أضاف هادي، مما جعلنا أكثر تحرقا لمعرفة السر الذي لا يعلم أحد به سواه. زحفنا لا إراديا نحوه مضيقين من قطر الدائرة المرسومة بأجسادنا الصغيرة حوله، فتذمر من رائحة عرقنا العطنة. انكمش على نفسه فترة طويلة، إمعانا في تعذيبنا، "عليكم أن تشتروا لي الآن ثلاث زجاجات كوكاكولا مثلجة، إن كنتم تودون سماع السر".

لم يكن "الشرط" الذي وضعه هادي سوى وسيلة للانتقام منا على خياناتنا له، نحن رفاق دربه القدامى، بالتواطؤ (كما ظن) مع خصومه، الذين ابتدعوا له لقبا لا يناسب شخصيته الفذة، إذ انتشرت في زقاقنا قبل أشهر قليلة كنية لحقت باسمه، لا يُعرف مصدرها ولا المغزى الذي تحمله. مع ذلك، فقد تفشت كالوباء في كل أرجاء الحي، وما عاد الناس يذكرون اسمه إلاّ وأرفقوه بلقبه الغريب: هادي "بودرة"*[1]

تبادلنا نظرات زائغة، سعياً للهروب من سطوة غموض ذلك السر الساكن وراء باب مطلسم، لا تفتحه سوى ثلاث زجاجات

* مسحوق التالك (powder) المستعمل في الماكياج.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مثلجة، يتطلب شراؤها جمع مصاريف الجيب التي نحصل عليها من أمهاتنا لعدة أيام. إضافة لذلك، كيف يمكن مقاومة رغباتنا بشراء البوظة المحلية، تخفيفا من حدة ظمأ الظهيرة الملتهب كل يوم؟ نهض أحدنا فجأة، فنهضنا خلفه، قال آخر لهادي بانفعال، "احتفظ بالسر لنفسك، نحن لا نريده" فرددنا معه بغضب، "نعم، نحن لا نريده".

تفرقنا عنه، تتبعنا روائح الصابون والدهون الطبية، التي اعتاد هادي استعمالها، منذ غزو "حب الشباب" لوجهه. كم شعرنا بالنفور منه آنذاك، كأنه لم يكن قبل عام واحد فقط فردا منا يقودنا في كل الغزوات، من تسلل إلى البساتين المنتشرة حولنا، وتسلق أشجارها المكتنزة بشتى أنواع الفاكهة، إلى الدخول في حروب ضارية مع صبيان الأحياء المجاورة. اعتدنا أن نثق به، فهو إضافة إلى كونه الأكبر سنا فينا، كان يتميز بشجاعة نادرة وروح مرحة محببة للجميع. ولا بدّ من ذكر روح الابتكار لديه، إذ بفضله تم اكتشاف أسلاك الكهرباء المغلفة بالبلاستيك، فبجدْل تلك الخيوط الملونة مع بعضها قدم لنا، ولأول مرة، قوس قزح في هيئة حزام. ولتوفير المادة الأولية، قادنا هادي في غزوات واسعة على أزقة "الخصوم" لاقتلاع أسلاك تقوية تسلّم موجات الراديو المشدودة إلى سطوح بيوتهم. كانت طلعاتنا تتم في وقت تمتُّع الناس بقيلولة الصيف بعد وجبة الغداء الدسمة.

لكن تلك القدرات بدأت تختفي، منذ أن طرأت عليه تغييرات جسدية مفاجئة، من زيادة هائلة في الطول جعلتنا نبدو أقزاما حوله، إلى تخشن نبرات صوته وتضخم عضلات ذراعيه. ما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أثار استياءنا أن تلك التحولات لم تجعله أكثر اندفاعا مما كان عليه، بل جعلته شخصا متردد وخجولا، ولم يمض وقت طويل على حاله تلك حتى خرج إلينا ذات مساء حاملا كل ثروته ليقوم بتوزيعها علينا: كيس خرزه الزجاجية الكبير، أحزمته السلكية، مقلاعه الشهير... ولم يطلب أي نقود مقابل تلك القطع الفنية النادرة. أعطتنا نبرة حديثه الحزينة انطباعا بأنه كان يقوم بتوديعنا توديعا أبدياً، وأنه على وشك الرحيل مع أهله إلى مدينة نائية عنا.

وكأن التخلص من كنزه قد سمح له بالتخلص منا دفعة واحدة، نحن المبهورين بمواهبه المتعددة، والمطيعين له دوماً. لكن الله عاقبه شر عقاب على تكبره وغروره، إذ سلب من جسده تلك الحيوية الفياضة وأحل محلها خورا ونحولا، ومن وجهه ذلك التوهج والفرح الساحرين، ليترك بدلا عنهما شحوبا وكآبة بليدة، ثم ألصق ببشرة وجهه دمامل كبيرة لا شفاء منها، فزادت من عزلته وقنوطه. وللانتقام من إهماله لنا رحنا نتصنع الضحك الصاخب كلما خطر أمامنا، أو نتظاهر بالتهامس نكاية به، لكن ذلك لم يدفعه يوما إلى التخاصم معنا، بل أمعن في تجاهله لنا، حتى فاجأنا بحكاية سره المثير.

رجع كل منا إلى بيته بعد هبوط الليل وانكسار حدة قيظ تموز، بهبوب نسائم ريح الشمال الندية. أبدت أمي قلقا كبيرا حينما شاهدت وجهي مكتسيا حمرة قرمزية، فطمأنها أبي مرددا، "إنها حرارة الصيف فقط". ومن سريري بدت النجوم أكبر بكثير مما كانت عليه من قبل، حيث تخفي كل منها خلف نبضاتها سراً غامضاً. تذكرت ما قاله الأستاذ صبري عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجود بشر في بعض النجوم يعيشون مثلنا، وعن إمكانية الذهاب إليهم عندما تتطور صناعة الصحون الطائرة في المستقبل، لكنني سافرت إليهم بدون عناء تلك الليلة. أدهشني لون بشرتهم بزرقته المائلة على الخضرة، وبيوتهم الهائلة الكبر، المحاطة بحدائق غنّاء برتقالية اللون. كانوا يعرفون كل شيء عنا، وحينما سألت بعضهم عن السر الذي يخفيه هادي، ضحكوا بتخابث. قال لي أحدهم إنهم عقدوا اتفاقا معه على عدم إفشائه لأي شخص ساكن فوق الأرض، فمضيت أصرخ بهم شاتماً، رافعا قبضتي في وجوههم. استيقظت على بسملات أمي وتعوذاتها وهي ممسكة بذراعيّ المتوترتين. جلب أبي لها طاسة مملوءة بماء، وقطعة من الشاش الأبيض فراحت تغمسها في الماء من وقت إلى آخر، لتفرشها بالتتابع على جبيني وكفيّ وقدميّ.

صباحا علمت أن رفاقي كلهم أصيبوا بالأعراض نفسها، فكان لزاما علينا أن نقضي أسبوعا في الفراش. وفي حالات المرض النادرة، كان الأهل يشملوننا بعناية خاصة، تجعلنا نتأسف على سرعة الشفاء. ما أن انسلت الحمى من أجسادنا حتى خرجنا إلى الشارع ملهوفين بحثا عن هادي. إذ توفرت لدينا نقود كافية لتحقيق شرطه. لكنه واجهنا بعينين نصف مغمضتين، وببرود قاتل معلنا عن تغيير طلبه، "أريد علبة سجائر روثمان، كنغ سايز".

لا بدّ أن العطلة الصيفية كانت وراء تعلقنا المجنون بسر هادي، إذ كنا نقضي ساعات النهار متكدسين في الشارع القصير، الذي تمتد على جانبيه بيوتنا، في هيئة قطارين

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متقابلين، وحينما تتسمر الشمس في سمت السماء، يتحول الإسفلت تحت أقدامنا إلى معجون أسود، والجدران إلى أتون جهنمية، فنظل نهرب من ظل إلى آخر. كأن عطلة الصيف الدراسية عقوبة للجميع؛ للناجحين والراسبين على السواء، مما يجعلنا بعد انقضاء أسابيع قليلة منها متحمسين للرجوع إلى مقاعد الدراسة، حيث تنتظرنا عصي المعلمين وصفعاتهم المتلاحقة.

في مدرسة المكارم تعلمنا القراءة والحساب، جمع الكسور العشرية وقسمتها. وفيها علمنا ما جرى للنبي موسى، بعد أن أودعته أمه إلى النهر في قفة صغيرة. لكن والحق يقال، إن مدرستنا التي اعتُبرت من أفضل المراكز التربوية في العاصمة، قد عجزت عن ترويض بذرة الشر الكامنة فينا، رغما عن تكسر مئات العصي فوق أكفنا، إذ ما أن ينتهي الدوام اليومي حتى ننزع عنا أجنحة الملائكة، لنمضي في أعمال الشغب المحببة للنفس، هل هناك كلب يمر أمامنا ولا نرميه بحجارة؟ أو طير يمر فوق رؤوسنا ولا نقذفه بحصى؟ كانت تتقمصنا روح تنين شديد البأس ذي سبعة رؤوس، حال مغادرتنا مبنى المدرسة، مندفعين من دون عوائق في تحقيق بطولات وخوارق لا حصر لها، حتى مجيء السر الذي وضعه هادي أمامنا. كم شعرنا بالعجز عن مقاومة سطوته المتزايدة، أو عن الاهتمام بأي موضوع آخر، لكأنه أصبح جرما يدور في فلك رؤوسنا الصغيرة ليل نهار، وكلما التقينا قفز بيننا حتى لو لم نتبادل كلمة واحدة حوله.

لم يأت قرار بيع لعبنا بثمن بخس إلاّ بعد أن فقدت قيمتها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لدينا، إذ ما عدنا نفكر فيها، أو حتى نفرشها تحت أبصارنا للمشاهدة فقط، وبالمبلغ الذي جمعناه اشترينا أخيراً علبة السجائر الأجنبية لهادي.

بعد العشاء ذهبنا معه إلى الساقية التي كانت تخترق حقول الخضروات المحيطة بمدينتنا، قبل ابتلاع الطابوق والكونكريت لها. جلسنا على حافتها الترابية المرتفعة قليلا عن سطح الأرض، وفي مخيلة كل منا راحت تعوم عشرات الاحتمالات عن طبيعة السر الذي ظل هادي يخفيه عنا وقتا طويلا، هل هو حول اكتشاف طريقة جديدة تجعل الحمام الكرخي يغرد كبلابل العيواضية؟ أم كشف الطريقة التي صنع بها مصباحه السحري من صناديق الورق المقوّى والعدسات المحدبة؟

كان نثار الضوء القادم من درب التبّانة وأضواء المدينة كافيا لرؤية تقاسيم السخرية والكآبة فوق وجهه المبقَّع بالحفر المعتمة. عبّ من سيجارته أنفاساً عميقة وعيناه مسلطتان على نقطة مجهولة ساكنة في تلك البساتين النائية المظلمة. فجأة، جاءنا صوته نحاسيا باعثا على القشعريرة، "هل سأل أحدكم يوما أباه كيف جاء إلى هذه الدنيا؟" لم يخطر في بالنا أن يكون لسؤاله علاقة بالسر، فرحنا نبعثر له كل ما زرعه الكبار في رؤوسنا من أكاذيب؛ تمتم طارق، "أبي دعا الله أن يكون له ولد فاستجاب له". همس قاسم، "خالتي قالت إن أبي قبَّل أمي من جبينها ليلة الزواج فأنبتني الرب في أحشائها". أردف فاضل، "عمي قال إن الحرارة التي تتولد حينما ينام الزوجان معا في الفراش تختلط بدم الأم، فيتكون الجنين في بطنها بمشيئة الله".

لا بدّ أن وراء قبولنا بشروحات الأهل والأقارب آنذاك فهما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بسيطا للنساء يتحدد بوضعهن في خانتين: الأمهات الطاهرات اللواتي لا همّ لهن سوى العناية بالأبناء، ولا جزاء لهنّ في هذا العالم بل في الحياة الأخرى، حيث وضِعت الجنة تحت أقدامهن، ثم هنالك رحاب الغانية ومثيلاتها، اللواتي يقدمن أجسادهن للرجال متعة، لا نعرف شيئا عن طبيعتها، على رغم تحرشنا برحاب كلما صادفناها في الطريق، مرددين كببغاوات دعوات لمضاجعتها، مستعملين تعابير مبتذلة نلوكها بدون إدراك معناها. أحيانا تلتفت إلينا لتقذفنا بسيول من الشتائم، تزيد من تهيجنا، وأحيانا تفتح لنا عباءتها بابتهاج، لنحدق مشدوهين إلى ثوبها الساتان القصير، الفاقع الحمرة، والمزركشة حوافه بشراشب بيضاء. كان عالم رحاب جذابا ومغريا بشكل غامض، لكنه مثير للازدراء، دبق واستفزازي. كأن هنالك عالمين منفصلين كليا في دواخلنا: عالم النور والنقاء والبراءة ممثَّلا بأمهاتنا، وعالم الظلمة والفجور والقذارة، ممثَّلا برحاب ورفيقاتها، حيث ينتظرهن بكل تلهّف جلادو جهنم الحمراء في العالم الآخر.

مضى هادي يشرح الحقائق بتفاصيلها، مما جعل أسنانا تطقطق لا إراديا ببعضها، ودفع بأجسادنا إلى الاختضاض على الرغم من قيظ تموز. كنا نقاطعه محتجين من حين إلى آخر على أكاذيبه، لكننا في الأخير استسلمنا إلى منطقه الجارف المزود بإثباتات غير قابلة للدحض. كان كل منا آنذاك غارقا بالعرق، مكللا بالعار، خجلا من أمه، حانقا على أبيه. صحت بهادي، في آخر محاولة لإنقاذ صورة الواقع القديمة من الانهيار، "أعطنا دليلا على صحة كلامك" مما دفعه إلى التأوه ضجرا من بلادتي: "أنتم لستم إلاّ دعاميص كبرت أكثر من اللازم...". مد يده داخل دشداشته البيضاء إلى بقعة مجهولة لنا، ثم راح جسده يهتز

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

باضـطراب، وراح "حـب الشـباب" يتكـاثر بشـكل مخيـف فـوق وجهه. فجأة، أخرج قبضة يده من جيبـه، ثم بسطها أمامنـا، وكم كان مدهشاً أن نشاهد مخلوقات فسفورية عارية تسبح على راحـة كفـه، اسـتطاع كـل منـا أن يجـد شـبيهه وسـط ذلـك الحشـد الهائـل الكبير، رغماً عن العتمة الثقيلة، ورغما عن الحمى التي عصـفت بنا آنذاك.

ربيع عام 1992

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أحلام الفيديو

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان صباحا هادئا كغيره، مكللاً بالغيوم الرمادية، حينما استيقظ حسين على رنين الجرس الناعم، لكنه كالعادة لم يثر شيئا من الفضول في نفسه، إذ من يقرع باب البيت في هذه المدينة من دون موعد سوى "شهود يهوه"* أو قارئ عدّاد الغاز أو...

جره الكرى إلى وهاده الرحبة، فمضى باستسلام صوبه، غاطساً تحت ملمس اللحاف المخملي إلى مملكته الشفيفة. ها هو مرة أخرى في صحبة أبيه يتمشى معه وسط أرض بور فسيحة مغطاة بالملح، بين الحين والآخر يدوس أحدهما على شتلات العاقول اليابسة، فتنبعث خشخشة غريبة منها. لم يغير أبوه شيئا من ملابسه: العقال والكوفية والصاية نفسها، لكنه بدلا من كيس تبغه كان يحمل غليونا، وبدلا من التحدث عن أبقاره وزرعه، كان يناقش موضوعا علميا جد معقد. كل ما استطاع استيعابه من محاضرة أبيه الطويلة، هو أن الفضل يعود إلى نابليون في اكتشاف نظرية النسبية لا إلى آينشتاين، وأن سرعة الضوء متغيرة حسب تقلب الطقس. فجأة، تمتد يد أبيه اليمنى لتقبض على ذراعه، يصرخ به محذرا من صلّ مندفع تحت شتلات الشوك، لكن جسده يندفع بتهور إلى الأمام ليدوس بقدمه اليمنى فوق ذيل الثعبان.

يستيقظ فزعا فتستقبله العتمة الأليفة، وشيئا فشيئا يندغم مع

* جمعية دينية تبشيرية واسعة الانتشار في أوروبا.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مناخ الحجرة، حيث ضوء النهار الخافت يتسرب عبر الستارة السميكة، فتظهر ملامح الزهور الكبيرة، الموشاة بها، لكن الألوان تظل باهتة لعينيه على رغم طبيعتها الصاخبة، ومع تراتيل الشحرور الرقراقة تستعيد الأشياء صلابتها وحقيقتها. كم يختلف مزاج أبيه في الأحلام عما كان عليه حقا؛ بدلا من الجفاف والقسوة الموسومتين في طبعه، يجده الآن إنسانا آخر ليّن العريكة، سهل المعشر؛ وبدلا من محدودية التفكير وضيق الأفق يحل محلهما ولع بالنقاش واتساع هائل في الرؤية. شيء واحد ظل مثار استغراب حسين: استخدام أبيه الدائم للإنجليزية في كل أحاديثه، وهو الرجل الأمي، الذي لم يتقن طيلة حياته، أكثر من لهجة أبناء الريف.

أثناء هبوطه السلّم الموصل إلى الطابق الأرضي، شاهد ورقة بيضاء مطلة من شق باب البيت المخصص للرسائل. كانت إعلاما عن وجود طرد بريدي مسجّل، عليه أن يتسلمه من مركز البريد المحلي. اختضت الدماء في عروقه وهو يقلّب الورقة. منذ سنوات وهو يتوق إلى رسالة شخصية، لكن ما كان يحصده دوما قوائم كهرباء أو تلفون، وأحيانا رسالة لا شخصية، تغريه بفتح حساب مصرفي جديد، أو اختبار بوليصة تأمين أكثر ربحا. رغما عن ذلك أصبح الذهاب أولا إلى الباب الرئيس طقسا لا إراديا يكرره كل يوم لحظة استيقاظه ليبحث في الإعلانات المقحمة إلى بيته عن ضالته غير القابلة للتعريف.

لن يستطيع الذهاب لالتقاط "جوهرته" من البريد قبل عودة بربارة من السوبرماركت. طفلته ما زالت غارقة في نومها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الملائكي، بعد مساء مثير قضته بصحبة أطفال الأصدقاء الذين احتفلوا معها بعيد ميلادها الثالث. فبدلا من النوم عند السابعة، امتد استيقاظها حتى العاشرة، وكم أثار قلق زوجته ذلك الأمر، مما جعلها تختطف نادين من أمام الطاولة الملأى بالكيك والمشروبات، لتحرك يدها بقليل من الانفعال، "إنها تقول لكم ليلة سعيدة"، ومن خلال الدموع كررت صغيرته ما طلبت بربارة منها ترديده، ملوّحة بكفها الناعم لهم. قال محتجاً وبطريقة مرحة، "في مدينتنا ينام الصغار بعد الكبار"، فدفع الآخرين للضحك، لكن زوجته الجادة دائما حدجته بنظرة تأنيب رقيقة، كأنها تقول له: "متى ستكف عن سلوكك الطفولي؟".

لبربارة روح مغرقة في النقاء، وحينما ينظر في عينيها الصغيرتين لا يجد سوى انجذاب كلّي له، ولا بدّ أن الرغبة ستراوده آنذاك للاعتراف لها بخياناته الصغيرة، فلن يكسب منها إلا فهما وتبريرا لحماقاته. ستقوده إلى جلسة تحليل نفسي حميمة تغمره خلالها بالأسئلة عن أحلامه الأخيرة، عن تجارب طفولته ومراهقته، ولا بدّ أنه سينغمر في إعادة ماضيه وفق الشكل الذي يجعله مفهوما لديها، إذ أي جواب يستطيع تقديمه لها حينما تسأله إن كانت أمه تغطيه قبل أن تتركه ليلا في سريره، وهو الذي لم يعرف النوم إلا على الأرض، محاطا بإخوته العشرة، وما الذي سيقول لها حول قسوة أبيه؛ "هل كان يلعب معك؟"، "أحيانا".

راوده من وقت إلى آخر شعور قوي بأن الماضي قد تغير، مثلما تغير مسار حياته بعد التقائه ببربارة. لكأن ضربات تلك العصي التي تلقّاها من أبيه وشتائمه البغيضة أضغاث أحلام،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أو هي أحداث وقعت لأحد معارفه، "كانت أمك تساعدك في تعلم القراءة؟"، "كثيرا". يغمره إحساس غريب بأنه نُسخ على حين غرة، رجلاً ناضجاً، ثم ألقي به وسط هذه الجزيرة الهادئة، وما تلك الصور المختلجة في أعماق روحه سوى أصداء حياة أخرى، وقعت في زمان ومكان جد بعيدين، لشخص آخر غريب عنه. لكن للنسيان سلبياته أيضا، ها هو يجد نفسه عاجزا عن تذكر سلسلة الأحداث التي وقع البارحة؛ ما الذي كان عشاءه؟ عمّ تحدث مع زوجته قبل أن يمارسا الحب؟ ماذا دار من حوار مع جارته العجوز صباحا؟ لكأن العالم الذي يحياه شبيه بفلم صامت؛ لا غضب، لا مشاحنات، لا انفعال، لا شكوى. "كم الطقس جميل هذا اليوم"، سيقول جاره المتقاعد، "إنه الوقت المناسب لشتل النرجس الأصفر، أليس كذلك؟"، فيجيبه حسين بحماسة مفتعلة، "أنت على حق، عليّ أنا أيضا شراء الشتلات في نهاية هذا الأسبوع". كانت فكرة تعلم تصوير الفيديو التي أوحت بها بربارة جد مناسبة له، كي يخفف من رتابة العمل، وليوثق الأحداث المهمة في حياته قبل أن تبتلعها دوامة النسيان. ولم يتطلب الأمر سوى حضور درس مسائي مرة واحدة في الأسبوع وشراء كاميرا. كانت حفلة عيد ميلاد نادين مناسبة مهمة لاختبار ما تعلمه خلال الأشهر الأخيرة. صاح بلطف بطفلته، بعد توجيه الكاميرا صوب مجموعة الأطفال المتحلقين حولها، "الآن انفخي على الشموع"، ثم أعقبها التصفيق والغناء. لكن المشهد لم يعجبه عند عرضه بعد وقت قصير؛ بدت نادين فزعة، واستغرق إطفاء الشموع وقتا طويلا، تخللته سعلات ابنته الحادة، مما اضطره إلى إعادة تمثيل المشهد كله. كم يمنحه الفيديو القدرة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على صياغة الماضي وفق رغبته، إذ في الإمكان تبديل أحداثه لحظة وقوعها، ثم توثيقها كيفما يشاء. مع الفيديو يصبح الماضي صناعة أكثر من كونه حقيقة. ها هو يتابع مشاهد الحفلة على الشاشة؛ الأغاني المنتقاة، حركات أجساد الصغار الرشيقة، وجوه الكبار البشوشة، البالونات والأشرطة الملونة، الكعكة الدائرية الكبيرة، وكأن لا مجال للفوضى كي تخترق نظام الأشياء الساكنة في دهاليز الماضي البهي...ليس هناك سوى ما هو أنيق وجميل...

أغفى على الكنبة قليلا، قبل أن تعيده إلى الصحو أصابع زوجته اللدنة، وهي تمسد شعرات رأسه الضئيلة. قالت برقة، "قد تبرد هكذا، هل أجلب لك غطاء؟". سألها عن حال السوبرماركت، "مزدحم بشكل غريب". قال وهو يتململ ناهضا، "هكذا هو يوم السبت كالعادة". في الطريق إلى البريد راحت التوقعات تنوس في رأسه بدون هوادة. بدا له الشارع الرتيب بأبنيته الفكتورية أكثر تألقا وإشراقا، لكن الرزمة التي وضعها الموظف بين يديه، دفعت بحماسه إلى الخفوت. أثناء عودته ظلت عينان تطلان من حين إلى آخر على اسمه وعنوانه المكتوبين على الظرف البني الكبير، وبأصابعه كان يضغط على إضبارة الأوراق المحشورة داخله.

أثارت محتويات الرزمة في نفسه حنينا خفيا لتلك المرحلة المغرقة في القدم، حينما كان عضوا قياديا في منظمة الحزب الطلابية. "رفيقنا العزيز... ندعوك لحضور احتفالنا المنعقد يوم...". يقلِّب في النشرات المطبوعة بتواريخ مختلفة؛ حروب ومجاعات وقعت، زلازل ومحن، انشقاقات ونزاعات حزبية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جديدة. تسترجع ذاكرته بوضوح غريب آخر الأشهر التي قضاها مع المنظمة المنشقة عن الأصل، والمعارك الطاحنة التي كان يخوضها ضد المناوئين. وفي المستشفى التي نُقل إليها التقى بربارة. كان إقصاؤه من الموقع القيادي غير قابل للتأويل بعد كل ما قدمه من تضحيات للمنظمة، ولم يقده موقف رفاقه اللامبالي من القرار إلاّ إلى الانهيار العصبي.

على يد طبيبته بدأ خطوات تعميده صوب طريق آخر، مبتعدا خطوة خطوة عن تلك الحلقة المغلقة، وشيئا فشيئا خفتت حدة الغضب والمرارة، ومع الاقتران بها بدأت رحلة الاندماج التدريجي بهذا العالم. ستقول له بعد خروج الضيوف، وبأسلوب اعتذاري، "الناس هنا لا يصدرون أحكاما قطعية بأي شيء" تذكيرا بما كال من آراء في تلك السهرة معهم. سيثور آنذاك ويكسر الصحون والكؤوس، ثم يغادر البيت ساخطا، مسعورا، ليعود بعد عدة أيام، وليجد كل شيء على ما كان عليه من قبل؛ تستقبله زوجته بهدوء مثير للدهشة، كأن لم يقع أي خلاف بينهما، وكأن غيابه لم يزد عن بضع ساعات... "الضحك العنيف قد يخيف الأطفال، حبيبي..."، تقول له مشيرة وبشكل خفي إلى اندفاعه المتحمس مع بعض أصدقائها في آخر لقاء بهم.

تنفتح له فجأة أزمنة مغرقة في القدم؛ فيض من العواطف يجتاحه، وهو يصافح رفاق الأمس، يستعيد صورهم القديمة المبعثرة في دهاليز ذاكرته المنطفئة، مختلطة بضجيج القاعة الرتيب، وأضواء المصابيح الثاقبة. بدوا له شخوصا وهمية لا تمت بصلة إلى أولئك المراهقين الذين قدموا يوما إلى هذه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجزيرة للدراسة، ولكأن اللحظة التي انفصل خلالها عنهم دُهورٌ خلَّفت وراءها فيهم غضونا عميقة، شعورا بيضاء، ورقابا مثخنة بطبقات الشحم. لكنهم ما زالوا يتمتعون بالحيوية نفسها؛ ها هم يتحلقون حوله، يربتون على كتفه بحرارة. يقول أحدهم بنبرة معتذرة، "لقد أثبت مجرى الأحداث صحة أفكارك"، يقول آخر بانفعال غريب، "لهذا السبب قررنا اختيارك قائدا للمنظمة"، يقول ثالث، "كان موقفنا تجاهك خطأ استراتيجياً"، فيجيبه الأول "كنا دوغمائيين".

وشيئا فشيئا، دفعته المجموعة صوب المنصة. تسربت إلى سمعه همهمات بعض الجالسين، "إنه القائد الجديد"، وحينما قدّمه مذيع الحفل انفجر التصفيق مجلجلا، تقاطعه الهتافات والأهازيج. في تلك اللحظة مرت في ذاكرته كشرارة خطبه النارية المرتجلة التي اعتاد أن يلقيها على الحشود، ولا بدّ أن وضعه الحالي ليس إلا فيلما من الماضي سجلته عدسة فيديو بدائية، لكن ملمس مكبّر الصوت البارد، والصمت الذي غلَّف القاعة بعد وقوفه أمام الجمهور، أعاده إلى الواقع الصلد، فدفع العرق للانهمار غزيرا فوق عينيه. سحب بضعة مناديل ورقية من علبة موضوعة أمامه، مسح وجهه بتأن. سيعاود التملي في حشود الحاضرين، بحثا عن أبيه المتوفى بينهم، فما يشاهده الآن ليس إلاّ حلما ثقيلا آخر، لكن بدلا من أبيه كانت بربارة جالسة في الصف الأول، جنب رفاق الأمس من دون أن تدري ما يجري حولها، ووراءها كان الجمهور غارقا في صمت مهيب منتظرا بلهفة ما سينطق به زوجها. حاول في تلك اللحظة، سعيا للنجاة، استحضار روحه المتمردة الأخرى، كي تقوم بإرضاء ذلك البحر البشري المتوتر، لكنه لم يحصد سوى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كلمات مهشمة ذات إيقاع موسيقي غريب. تلفَّت حوله فأثارت انتباهه حال الفوضى التي رصِفت وفقها الكراسي والطاولات. كان كل شيء قبيحا حوله، وغير صالح لكاميرا الفيديو؛ الكتل البشرية المتحلقة حول كل طاولة، المسافات الفاصلة بينها، والملابس المتنافرة الألوان.

سيحكي لهم عن ضرورة الاعتناء بجمالية الحاضر كي يمكن الحفاظ عليه عبر تصويره. سيطلب منهم النهوض فورا، والبدء بتغيير مواقعهم ومواقع كراسيهم وطاولاتهم؛ سيطلب منهم الاعتناء بغلق أزرار قمصانهم وسترهم، وضبط ربطات أعناقهم، وتمشيط شعورهم، وحينما همّ في الحديث تصادمت في فمه الكلمات ببعضها البعض.

فجأة غمره شعوره بالخفة، جعله يتخلص دفعة واحدة من قيوده، وحينما صفق بيديه مرة واحدة ردد مكبِّر الصوت الصدى مرارا. غمره صوت ذلك المغني الريفي المنبعث من أزمة موغلة بالقدم، كضباب يتصاعد من القاع، ليمنحه أجنحة جامحة. ها هو أخيرا ينطلق بالأغنية الفولكلورية بدون كابح، يصفق بيديه، ويضرب الأرض برجليه، تجرفه قوة بركانية هائلة، فتزيح عن طريقها طبقات الصخر السميكة...

لا يستطيع تذكر ما حلّ بعد ذلك. كل ما بقي في مخيلته صورة زوجته وهي تنسل بهدوء من القاعة وقبل أن تغلق الباب وراءها رفعت بيدها مودعة إياه وداعاً أبدياً.

لندن، ربيع 1993

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كفاءة من نوع خاص

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

لم يكن حصولي على ذلك العمل إلاّ بفضل الصدفة المحض التي دفعتني إلى التقاط الـ Evening Standard من فوق أحد المقاعد الفارغة، إذ اعتدت على متابعة «برجك هذا اليوم» وأخبار كرة القدم الإنجليزية في تلك الصحيفة، كلما عثرت عليها في داخل المترو. ربما كان توقف القطار الاضطراري في نفقه هو الدافع الذي جعلني أمضي في قراءة الإعلانات، تجنبا لنظرات الركاب الضجرة من ذلك الانتظار الإجباري داخل عربة المترو المغلقة.

وسط صفحة إعلانات العمل، واجهتني ثلاثة سطور في عمود ضيق، تعرض عملا نادرا: «مترجم ومحرر في جريدة اقتصادية، يجيد العربية والإنجليزية، الرجاء، لمن يرغب بالتقديم الاتصال تلفونيا بهذا الرقم...»

جاء ذلك المستطيل المعبأ بالكلمات كدعوة شخصية لي بتسلم الوظيفة، بعد قضاء أشهر كثيرة، منتظرا وصول النقود من أهلي لبدء الدراسة، إذ حالت ظروف الحرب* دون وصول إي دفعة مالية منهم لتلك السنة، مما أضاع علي فرصة الاستفادة من القبول الدراسي لتلك السنة. ومع العمل المؤقت في المطاعم والمقاهي كنت مجبرا على التقشف الشديد لدفع ما أحصل عليه من أجر تافه لغرفة سكني الصغيرة، وللتدفئة الكهربائية الباهظة الثمن، بعيدا عن مغريات المدينة الكثيرة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مؤملا النفس باقتراب توقف الحرب*.

حينما أدرت قرص التلفون توقعت مجيء الرفض من الطرف الآخر حال معرفته بعدم امتلاكي أي خبرة في مجال الترجمة والعمل الصحفي، لكن الصوت الرجالي الذي تسرب إلى سمعي بدا وديا وخاليا من التكلف. تجنب من ناحية أخرى طرح أي سؤال يتعلق بطبيعة الوظيفة وكفاءات المتقدم لها. شيء واحد تأكد لكلينا أثناء تلك المكالمة المبتسرة: انتماؤنا إلى مدينة واحدة: بغداد.

ارتديت في يوم المقابلة أفضل ملابسي مع ربطة عنق حمراء منقَّطة باللون الأزرق، وحينما قرعت جرس المكتب الواقع عند تقاطع طريقين، فتحت لي فتاة الباب، وما أن ذكرت لها اسمي حتى انفرجت على محياها ابتسامة عريضة.

دعتني للدخول، حيث قابلني مربع الاستقبال الذي ينتهي بحجرة نصف مغلقة. في الزاوية اليمنى انحشر سلّم آخر يهبط صوب السرداب. أجلستني على كنبة صغيرة. سألتني إن كنت أحب احتساء كوب من الشاي أو القهوة؛ إن كنت أحبه بالحليب أو بدونه؛ مع السكر أو خاليا منه. كان حديثها عسيرا على الفهم، لغزارة تساقط الحروف، من أواسط ونهايات كلماته، مما دفعني إلى هز رأسي من وقت إلى آخر، تعبيرا عن موافقتي المؤدبة لها.

قدمت لي استمارة، ثم طلبت مني ملأها. قالت معتذرة إن صاحب المكتب سيهبط من غرفته للالتقاء بي، حال الانتهاء

* الحرب العراقية الإيرانية 1980-1988

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من زبونه الثري، الذي جاء لأمر طارئ، من دون موعد سابق. ما أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر، آنذاك أسلوب سوزان في ذكر اسم مخدومها، إذ كانت تكتفي بـ «سامي» (بدلا من الدكتور سامي الأدهمي!)، مما أعطاني انطباعا بأن رب العمل ليس إلا شابا في عمري. ذكرت السكرتيرة قبل أن تترك مربع الاستقبال، أن مديرها إنسان دقيق في تعامله مع الوقت، وأكثر ما يهمه تأدية مستخدميه للعمل، بنفس درجة الحرص التي يمتلكها هو نفسه أثناء ساعات الدوام. قالت ذلك بأسلوب ساخر، مبطن، قابل لأكثر من تأويل.

لم يكن على الجدران ما يشير إلى جنسية سامي الأدهمي، فعدا تلك النخلة المنقوشة على صحن معدني، وسط نصوص قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي، ومزوَّقة بلون ذهبي، لا شيء يوحي بصلته بالشرق. أتذكر ذلك التقويم المزود بصور لسيارات «فيات»، معلقة بقربه نسخة فوتوغرافية للوحة رسم باهتة عن الريف الإنجليزي، تنتمي إلى القرن السابع عشر. هناك على الجدار المجاور لي تقويم آخر.

قبل أن أكمل ملء استمارة طلب العمل، انفتح الباب في الطابق الأعلى، تناءى إلى سمعي صوت الزبون، وهو يكرر عبارات الشكر، تقابلها تأكيدات صاحب المكتب، عن قرب انفراج المشكلة التي جاء من أجلها. خمنت من لهجة الزائر وملابسه قدومه من إحدى إمارات الخليج: تاجرا أو صاحب عقار يتنقل بين لندن ومدن البترول، وحينما أغلق المحامي الباب وراءه تنفس الصعداء. تقدم نحوي فاركاً يديه. نهضت لمصافحته بحمية، لكنه واجه اندفاعي بنظرة استغراب، كأنها تريد أن تقول لي: «ما هكذا يتصرف المتقدم لوظيفة جديدة مع مستخدِمه». أخذ مني الاستمارة التي انتهيت منها، وأعطاني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مقالة مقطوعة من مجلة اقتصادية موضوعها يدور حول التطور الذي شهدته بلدان الخليج، منذ ازدهار تصدير البترول فيها وحتى يومنا الحالي. طلب مني القيام بتلخيصها في ثلاث صفحات فقط. كان حديثه جافا ومبتسراً، ولم تترك نظراته المتغلغلة عبر زجاج نظارتيه السميكتين في نفسي إلا شعورا بالنفور منه. ما أثار انتباهي ذلك الأنف الكبير، المكوَّر، وسط وجه مبقَّع بآثار بثور، تعود لمراهقة قديمة، وفي أنفاسه كان ممكنا سماع ذلك الخوار الثقيل، لكأنه يشفط بمنخريه الهواء بنهم، بحيث لا يترك للحاضرين منه سوى نزر ضئيل.

راودتني الرغبة بالانسلال من كرسيي ومغادرة المكتب من دون رجعة أثناء ذهاب سامي إلى الغرفة الأخرى، لكن صورة صاحب المطعم القبرصي الذي كنت أشتغل عنده اخترقت مخيلتي فجعلتني أواصل الكتابة فوق تلك الطاولة الخشبية الصغيرة، مقتبسا فقرات من هنا وهنا، محاولا إيجاد أواصر بينها، باستخدام حروف الجر والضمائر وظروف الزمان والمكان، التي استطعت استحضارها. آنذاك، كان صوت المحامي يلعلع ساخطا، يقاطعه بانتظام صوت سوزان المرح، إذ ظلت تقدم له تبريرا أثر آخر لكل سؤال متشنج يطلقه سامي الأدهمي في وجهها، لكن شيئا فشيئا، تحولت نبرة السكرتيرة الواثقة من نفسها إلى جمل مفككة، حادة، ثم انتهت بالاستسلام إلى منطق محاورها الجارف الذي استطاع أخيرا إثبات تقصيرها بالعمل.

توقعتُ اكتشاف سامي ضعف كتابتي بالإنجليزية، حال تسلمه أوراق الاختبار، إلاّ أنه لم يقض سوى دقائق قليلة في قراءتها حتى سمعت صوته فجأة، «ممتاز». حينما سألته، متى أبدأ العمل، أجابني بدون أي تردد: «غدا إذا أحببت.»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(2)

قال سامي الأدهمي، «اليوم مخصص لمساعدتك على معرفة عملك،» ثم ألقى نظرة أخرى على ساعة يده، دفعتني إلى اجتراع رشفات أكبر من كوب القهوة التي أعدها لي بنفسه. قادني صاحب المكتب إلى السرداب، الذي سيكون موقع عملي الجديد. تحت أشعة المصباح النيوني البراقة، ظهر الممر القصير عامرا بقطع أثاث عتيقة، مبعثرة فوق أرضيته، إلى درجة تجعل الوصول إلى الحجرة الوحيدة في السرداب عسيرا. كان علي أولا رفع الآلة الكاتبة ومسندها الحديدي ووضعهما جانبا، ثم إركاء خزانة الأضابير الثقيلة على الجدار.

قال المحامي متباهيا، بأنه اشترى كل هذا الأثاث من صديق قرر إغلاق مكتبه والسفر إلى أمريكا، ولم يدفع مقابله سوى خمسين جنيها، لكنه استدرك، «كانت الخمسين لها قيمة قبل عشرة أعوام.» أضاف وهو يشعل مصباح الحجرة،« توقعت مجيء اليوم الذي سأستفيد فيه من الأثاث»، وحينما لمح على وجهي آثار الإحساس بالخيبة لحالة «مقر» عملي، بادر مؤكدا، بأنه اتفق مع منظفة ماهرة، كي تبدأ فورا بتطهير الحجرة وترتيبها لي قبل نهاية عطلة الأسبوع.

أثارت انتباهي تلك الأنسجة المشبعة بالغبار الثقيل، والمتدلية من سقف الحجرة الواطئ، حيث ينزلق بين خيوطها عنكبوت كبير، وبعث مرأى الأثاث المعدني نثار الجليد في أنفاسي. عند

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صعودنا السلَّم الضيق تهادت إلينا كركرات نسائية مرحة. قال المحامي محتدا: «جانيت لا تعرف العمل من دون ضجيج».

لم يبدد الأدهمي وقتا طويلا في مكتب السكرتارية، إذ اكتفى بتقديمي لكاتبة حساباته بطريقة آلية، معمقا فوق وجهه غضون التجهم. طلب منها أن تصعد إلى مكتبه بعد انتهائها من تدقيق رزمة الوصولات المرصوفة أمامها. التفت إلى سوزان متبرما، «لم تنته بعد من طباعة الوثيقة؟» هزت رأسها نافية بدون أن ترفع عينيها عن الآلة الكاتبة، «بقيت صفحة واحدة فقط». قال محتدا: «هذه المؤسسة تخسر يوميا مئات الجنيهات بسبب تضييعك نصف وقت العمل بالتدخين».

قالت سوزان: «لكنني لا أتوقف عن الطباعة أثناء ذلك.» اندفع المحامي آنذاك في إثبات خطأ وجهة نظر سكرتيرته، ذاكرا بالتفاصيل كم يستغرق إشعال سيجارة واحدة؛ كيف يؤثر الدخان على البصر؛ وكيف يسبب التدخين ضعفا في التركيز. بدا لي أن سامي الأدهمي استعد لتلك المرافعة طويلا، إذ إنه استشهد بآراء بعض العلماء والباحثين في هذا الموضوع، ذاكرا المصادر التي جمع منها معلوماته. ولا بدّ أنه هيَّأ ملفا ضخما حول التدخين، وناقش الحجج مع نفسه مرارا، متقمصا تارة دور محامي المتهم وتارة أخرى دور المدعي العام، ما جعله يتقن تفاصيل المحاكمة، إلى درجة أصبحت معها إدانة المتهم أمرا حتميا. رغما عن ذلك، لم يترك انتصار الأدهمي الساحق تأثيراً كبيرا على مزاج سوزان، باستثناء تلك الحمرة الخفيفة التي تسربت إلى وجهها لفترة قصيرة، إذ ظلت عيناها تتنقلان بين المسودة والآلة الكاتبة، وظلت أصابعها تضرب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مفاتيح الحروف برقة. أخرجت شريطا من اللبان من حقيبتها الصغيرة، وراحت تعلكه على مضض.

تبدلت لهجة المحامي العدوانية فجأة إلى نقيضها: أصبح حديثه مع سوزان حميما وديا، ذكر لها أن غضبه لا يعود إلاّ إلى حرصه على صحتها، إذ كم زادت نسبة المصابين بسرطان الرئة في السنوات الأخيرة، ناهيك من أمراض أخرى كالربو، والتهاب القصبات المزمن الذي ما زال سامي يعاني منه، بسبب إفراطه في التدخين، أثناء فترة مراهقته وشبابه. عرض عليها أن تأخذ يوم الجمعة القادمة عطلة مدفوعة الأجر. سألها إن كانت تحب الانصراف فورا، بعد انتهائها من طبع الوثيقة. وللتخفيف من ثقل الهواء الذي سببته «المرافعة» روى نكتة سبق لأبي أن حكاها لأصدقائه قبل قرون، ولا بدّ أنه كررها كثيرا كآخر نكتة سمعها من أبناء وطنه، لكنها لم تترك أثرا على المرأتين، بالرغم من ترجمته الشيقة وأدائه اللبق.

لمحت قبل مغادرتنا الحجرة على عيني جانيت الجاحظتين ابتسامة نصف ساخرة، نصف ماكرة «لا بدّ أنك ستتمتع كثيرا بالعمل معنا». قالت لي ذلك، فحدجها المحامي بنظرة مستريبة، حانقة.

(3)

وكم كانت كاتبة الحسابات الخلاسية على حق!

ما زلت أتذكر بوضوح جناح الأدهمي الواقع في طابق المكتب الأعلى، إذا ما أن ينتهي المرء من المصعد الضيق ذي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الاثنتي عشرة سلّمة ويدفع الباب حتى يواجهه ممر قصير، إلى اليسار باب آخر يقود إلى حجرة معتمة تتوسطها طاولة مصففة فوقها الأضابير، ويمينا يتجزأ الممر إلى حجرتين جد صغيرتين متتابعتين ومفتوحة الأولى على الثانية، ومن الواضح أن هذا الطابق لم يكن سوى مخزن احتياطي فحوَّله المحامي بعد شرائه البناية إلى متاهة يتنقل بين أرجائها: هنا موقع البرّاد والغلاّية الكهربائية، هناك تجلس جانيت لإجراء الحسابات، في موقع آخر قريب من الجدار الفاصل بين حدود دولة الأدهمي الرطبة والعالم الخارجي، نُصب جهاز التلكس الذي بواسطته يتصل بزبائنه المنتشرين في دول النفط الثرية، وما يشجعهم على الاستئناس بنصحائه، والاعتماد عليه وكيلا لمصالحهم شهادة الدكتوراه التي حصل عليها من أكسفورد، أصله العربي وسمعته الحسنة بين رجال الأعمال.

في تلك البقعة وحدها، كنت أرى سامي الأدهمي منسجما مع نفسه، برغم ضيقها، وبرغم غياب النوافذ الواسعة التي تسمح بدخول الضوء الطبيعي الكافي لإنارتها. في تلك الشرنقة كان ذلك المحامي يتقمص روح روبنسون كروزو، إذ من برجه المعزول يمسك بمهارة بخيوط اللعبة، حيث تتنقل النقود والسلع من قارة إلى أخرى عبر مكتبه. يعرف سامي الأدهمي ما يجري في سوق المضاربات، على الرغم من مشاغله المتنوعة. يتابع كل يوم ارتفاع سعر الجنيه الإسترليني وانخفاضه؛ كم هو سعر برميل النفط الحالي، وكم من المتوقع أن يكون بعد شهر. سألته ذات مرة كيف يستطيع ملاحقة أعماله الكثيرة والمتنوعة لوحده، «إنها القدرة على التركيز. حينما أجلس لإنجاز عمل معين أغلق ذهني عن أي شيء آخر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سواه». سيظل يكرر عليَّ حكمته المفضلة من وقت إلى آخر، كلما وجدني «متقاعسا» عن العمل: «العلم تمكن من تجاوز كل العقبات إلاّ عقبة الزمن، وإذا أنت لم تستفد منه فلن يمكنك أبدا استرجاعه.» وغالبا ما يرفق تلك العبارة بنظرة حانقة، متذمرة، وإعادة ترديد المثل الإنجليزي القديم « Time is money». التفت إليّ منتفضا حينما سألته، ذات يوم إن كان يشعر بالحنين للوطن، «ما الذي سيكون موقعي في بلدك لو أنني رجعت بعد الدراسة؟ وزيرا لفترة قصيرة؟ ثم ماذا؟ السجن بعد انقلاب عسكري أو ربما الإعدام.»

لكن اختيار البقاء في الخارج لم يجعله سعيدا في حياته الخاصة. قالت جانيت إن زوجته قد تركته، مفضلةً سائق شاحنة عليه. ذكرت في المحكمة أن الاختلاف الحضاري بينها وبين زوجها جعل حياتها «مملة». لكنه استطاع بمهارته القضائية أن ينتزع ابنته شهرزاد من أمها مدعيا أن خيانة زوجته له، وقرارها العيش مع رجل عنيف، يغطي الوشم صدره وذراعيه لا يؤهلها لرعاية طفلتهما.

يمكنني اعتبار الشهر الأول من عملي فترة تدريب وائتلاف مع المكان والوسط الجديدين. أول واجباتي التي طلب الأدهمي مني تنفيذها كل صباح الصعود إلى حجرته وتسليمه الملف المخصص للصادرات، وتسلم ملف المواد الجاهزة للطبع. قد أستطيع القول إن عملي كمحرر للجريدة الاقتصادية، كما هو متوقع، أصبح تدريجيا يتضمن نشاطات أوسع لا صلة لها بالصحافة. قال المحامي حينما سألته عن مشروعه الجديد، إن ما ينوي إصداره نشرة شهرية بثماني صفحات متوجهة بشكل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رئيس إلى الشركات الغربية، إذ أنها تتضمن معلومات مفيدة لرجال الأعمال حول المشاريع الاقتصادية التي تنوي البلدان العربية بناءها.

كجزء من مهمات عملي، عليّ متابعة الصحف العربية والبريطانية والكراريس التي تصدرها البنوك بحثا عن مواد «شهية» للزبائن! سيقوم من جانبه بمساعدتي على تحرير هذه المواد المقتطعة وتحويلها إلى مادة تنتمي بأسلوبها إلى نشرته.

يؤكد الأدهمي أن كل الصحفيين يسرقون من بعضهم البعض في العالم الغربي، «المهم طريقة التحرير التي تخفي الآثار...» حدثني عن تجربته العريقة في الصحافة حينما كان طالباً، إذ عمل محررا لصحيفة تمثل مجموعة من الطلبة العراقيين اليساريين. إلاّ أن تلك المنظمة انتهت بالانقسام أولاً إلى فصيلين، ثم انشطرت إلى أربعة، أمّا الجريدة فما عاد ممكنا تمويلها.

قال هازّاً رأسه: «كانت فترة طيش».

رغما عن ذلك فإن فكرة إصدار المجلة (كما ظننت آنذاك) هي تحقيق حلم قديم بامتلاك دورية ذات نفوذ كبير على مشاعر الناس وأفكارهم، لكن حلم المراهقة تحقق في هيئة مجلة إعلانات مشكوك بنجاحها التجاري. «سأكتب افتتاحية كل عدد،» قال المحامي متباهيا، «ولا بدّ أن أفكارها ستعجبك».

أكدت جانيت أن اشتغالي في المكتب ترك تأثيرا حسنا على سامي، إذ ما عاد يختلق الخصومات معها أو مع سوزان. هزت كاتبة الطابعة رأسها مؤيدة، وعلامات الاسترخاء بادية على وجهها. لا بدّ أن المحامي سُرّ كثيرا لقدرته على مدح نفسه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بشكل متواصل أمامي. بوجودي معه استطاع أن يكتشف كم هو ناجح في عمله، وبحديثه معي باللهجة البغدادية العتيقة تعرّف إلى إنجازاته الضخمة في عالم غريب عنه. قال لي، ذات مرة، بنبرة خجولة: «هل تصدق أن كل أحلامي تدور في بغداد؛ على الأغلب في المحلة أو في بيتنا القديم.» أحيانا كان يرى أمه المتوفاة في المنام تتحدث بالإنجليزية مع أبيه وأخوته (وهي التي لم تتعلم قراءة جملة بلغتها الأم) فيستيقظ فزعا.

(4)

إذا كان الاستماع لأمجاد الأدهمي الضخمة إحدى مهام عملي الممتعة، فإن مواجهة طبيعته الخصامية شيء آخر يتطلب الكثير من الصبر وقوة التحمل. لم يحدث التبدل في سلوك رب العمل إزائي، إلا بعد انقضاء ما يقرب من ثلاثة أشهر عليّ في الخدمة. تنعمت خلالها بحظوة لم يمنحها الأدهمي لأي أجير قبلي. كأن تحالفا نشأ بيننا ضد الطرف الآخر: جانيت وسوزان، ما أتاح له الإفراج عما كمن في نفسه من مشاعر مرارة تجاه «تقصيرهما» في العمل. ويبدو أن الاصطدام معهما لم يكن يعطي المردود المطلوب، إذ ما أن تنتهي ساعات الدوام، حتى تنسى كل منهما ما وقع في المكتب، على الرغم من كل الدماء التي يسفكها المحامي في محاولاته معهما!

يعزو سامي نواقص كاتبة حساباته إلى الوراثة، فالدماء التي تجري في عروقها كما يعتقد فوّارة بالتناقض: الأب الهندي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ترك روح الصبر فيها، والأم السوداء منحتها روح التمرد، أما جزر «الكاريبي» التي قدمت منها، فقد أغدقت عليها طبعا مرحا، صاخبا، متعارضا مع أي عمل مكتبي رصين. مع ذلك، فإن هناك أواصر غريبة تجمعه بها، ما يجعل وجودها في المكتب ضروريا لتوازنه الداخلي. من جهتها، تجد جانيت نفسها مدفوعة للبقاء معه لأسباب «قدرية» غير قابلة للتأويل، إذ سبق لها أن تركت العمل مراراً، إثر مشاحنات عاصفة مع المحامي، لكنها في كل مرة تعود إلى مكتبه بعد مرور فترة قصيرة بمبادرة منه أو منها. «أسابيع قليلة، وأنسى كل شيء عدا طيبته ومدى حاجته إليّ.»

قد يكون سبب بقائهما في العمل سويا لأكثر من عشرين عاماً تشابه تجربتي زواجهما، فكلاهما مطلَّق، وكلاهما لديه بنت واحدة،؛ ابنة جانيت رافقت زوجها لتعيش معه في «الكاريبي» وشهرزاد تركت بيت أبيها في سن السادسة عشرة.

على غير عادته هبط الأدهمي ذات صباح إلى مكتبي، ولا بدّ أنه اشتم رائحة دخان السيجارة التي انتهيت منها على عجل قبل دقائق، لكنه لم يبد أي استياء، عدا زمّ قليل لفمه، وتأوه خفيض. حاول جاهدا أثناء تلك اللحظات إبعاد الشبهة عن انزعاجه من تصرفي. قال المحامي بنبرة هادئة: «سأذهب إلى البريد... هل تحب مرافقتي؟» أثار عرضه الحيرة في نفسي، ما جعله يضيف مطمئنا: «إنها دردشة فقط...» تخفيفا لحالة الارتباك التي داهمتني آنذاك.

مع كل خطوة رحنا نرميها كان المحامي يستجمع أفكاره

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وينضِّدها بتسلسل مثير ليصوغها بمنطق جارف. ابتدأ حديثه بالتعبير عن رضاه بعملي، إذ أصبحت مساعدتي له ضرورية في المكتب. كم خفَّفت عنه أداء تلك المهام الثانوية التي كانت تستهلك منه ساعات ثمينة كل يوم: لصق الطوابع على ظروف الرسائل؛ استلام برقيات التلكس من زبائنه؛ تصوير الوثائق... وعلى الرغم من أهمية هذا العمل، فإنه بعيد عن الوظيفة التي شغَّلني من أجلها. مع ذلك، فهو لم يفقد ثقته بقدرتي على التعلم منه، وتحمل أعباء المجلة في المستقبل القريب. بعد أن دفع رسائله في صندوق البريد التفت إليّ فجأة قائلا: «ألا تجد أن الأجر الذي تتقاضاه كمحرر أكبر من عملك الحالي.» لا بد أنني شعرت بالخجل من تلك المفارقة بين نوعية عملي الفعلية، قياسا بالعمل الذي عُيِّنتُ من أجله، مما جعلني أهز رأسي موافقا. توقع الأدهمي احتجاجي على هذا السؤال، ومن المؤكد أنه هيأ حججه الدامغة التي ستسمح له بالدخول في جدل حاد معي ينتهي بانتصاره، لكن صمتي أضاع عليه متعة الانغمار في لعبة استعد لها طويلا، فمضى ينفث أنفاسه بغضب. جاء هطول المطر منقذا للوضع. اندفعنا إلى المكتب بخطوات عجلى؛ هو تحت مظلته الكبيرة التي يحملها دائما معه؛ وأنا تحت رحمة الغيث المدرار.

(5)

أقبل «الكريسماس» في تلك السنة، مكللاً بالثلج، إذ بدأ الوفر بالتساقط فوق «لندن» بدأب استثنائي، منذ الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر، ولا بدّ أنني شعرت بالانفراج لحلول

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عيد الميلاد، فالناس تعتريها رقة خاصة تجاه الأقارب والأصدقاء والمعارف تتمثل بتبادل بطاقات التهنئة والهدايا الملفوفة بأوراق جميلة براقة. كأن تلك المناسبة تمنحهم فرصة الانغمار بمتعة البذخ بدون التفكير بعواقبها. إضافة لذلك، فإن أجواء «الكريسماس» أجبرت الأدهمي على الالتزام بهدنة غير معلنة معي.

منذ موافقتي على تخفيض أجري، انغمر رب العمل في حرب ضروس ضدي، مستخدما فيها كل قواعد منطق أرسطو، ومبادئ المرافعات بصرامة لا متناهية. ابتدأ أولا «بإقناعي» بزيادة عدد ساعات العمل كجزء من ضرورات «التدريب»، ثم توسيع مهام عملي إلى الحد الذي تضمن تدقيق ما تطبعه سوزان من نصوص. كان عليّ أن أقوم بأي عمل «مفيد» أثناء ساعات العمل، وألا أدى إلى انفجار المحامي في وجهي بسيل من الأسئلة والتعليقات تقود إلى إرباكي، وأحيانا إلى انفجار معاكس يجبره على التسلل من قبوي، ليبعث إليَّ من بعد، بجانيت الطيبة للتصالح، عارضا عليّ بواسطتها زيادة طفيفة في الأجر أو إجازة قصيرة.

أحيانا، وتحت وهم الإحساس بأهميتي في المكتب، كنت أبادر إلى اقتطاع أجزاء من مقالات، تناسب المجلة المنوي إصدارها، فأقوم بإجراء تعديلات طفيفة عليها، بمساعدة جانيت، لتقوم سوزان بطبعها. لكنني حالما أضعها أمام رب العمل حتى يمضي نائحا على الوقت الذي أهدِر في إنجاز ذلك النص «البائس»، والكهرباء التي استُهلِكت أثناء الطبع. أحيانا، كان يندفع في محاكمتي عند مشاهدة المرأتين بدون عمل،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فيردد ساخطا: «عليك أن توجد لهما أي شغل تنجزانه. أنت وكيلي هنا...»

كان المكتب موحشا في تلك الأيام، فالطابق الأرضي خلا من نزلائه: سافرت سوزان في إجازة إلى أهلها الساكنين في «برمنغهام»، وأخذت جانيت الطائرة لقضاء أسبوعين مع أسرة ابنتها في «الكاريبي». قالت لي ضاحكة: «سأكون برفقة الشمس الدافئة، في الوقت الذي ستقضي أيامك برفقة رب العمل.» همست بعبارتها الأخيرة وهي تشير بسبابتها إلى السقف. ما زاد إحساسي بالوحدة ذلك البرد الثاقب للعظام الذي قدم من القطب الشمالي، والذي حوّل المدفئة الكهربائية في قبوي إلى جسم صلد، عديم الفائدة، مما أجبرني على التلفع بمعطفي ولفّافي طيلة ساعات الدوام. عبر نافذة مكتب السكرتارية الواسعة كان ممكنا مشاهدة أشجار السنديان الرمادية، حيث تعلو ندف الثلج البيضاء أغصانها العارية، والشارع مغطى بطبقة سميكة من غراء أبيض وبني اللون.

لا بدّ أن رب العمل شعر بوحدة مضاعفة، إذ كما سمعت من جانيت، فإن ابنته قررت مع زوجها السفر إلى «إسكتلندا» برفقة طفليهما، لممارسة التزلج على الجليد. ومن المألوف أن يلتقي المحامي بهم في أيام الكريسماس وعيد الفصح فقط.

كم تبدو لي غريبة الآن حالة المكتب في تلك الأيام، فوسط جو مشحون بالمرح والألفة خارج بناية العمل الصغيرة كنا نعيش في الداخل حربنا بصمت: المحامي في طابقه الأعلى يبحث عن أسباب للجدال والمشاجرة؛ وأنا في قبوي أجاهد لتجنب التصادم معه، منقباً في ذاكرتي عن نواقصي وأخطائي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

التي كانت (كما ظننتُ آنذاك) سببا للخلاف سعيا لتجاوزها. كان كل منا حاضرا في وجدان الآخر. يذهب معي في سكني، فأدخل معه في نقاشات لا أول لها ولا آخر، ولا بدّ أنه كان منغمرا باللعبة نفسها مع تابعه الشاب!

كأن عملي مع الأدهمي أزاح عن روحه الشعور بالفراغ، ومنحه فرصة لإيقاظ ذلك الجزء الفعّال في شخصيته، وأعني به الجزء المجادل الذي خبا منذ توقف المحامي عن نشاطه السياسي. وإذا كان وجودي في المكتب ساعد على ازدهار شخصية الأدهمي، فإن لفارق العمر ونقص التجربة أثرهما السلبي عليّ: بالقدر الذي أشبع الآخر في نفسه الحاجة للشعور بالنجاح والتفوق، فإنه بالقدر نفسه زرع في داخلي شعورا بالعجز الذاتي والخيبة الكاملة من قدراتي. سألني ذات مرة ساخراً، إن كنت قد حصلت على أي تأهيل دراسي.

مع ذلك، فإن للإحساس بالضآلة حسناته. أتذكر تلك الأوقات التي كنت أقضيها في حجرة السكرتارية عند غياب رب العمل عن المكتب، حيث التمتع بدفء المكان وضوء النهار وتنشّق رائحة العطور النسائية والمشاركة في الثرثرة التي تؤججها جانيت دائما. وبفضل ذلك الإحساس نفسه دعوت سوزان إلى حجرة سكني، بدون أي مقدمات، ولا بدّ أن استجابتها لطلبي كانت تحت تأثير الاندهاش من جرأتي التي لا تتناسب مع وضعي الباعث على الشفقة داخل المكتب. نعم، كنت أتلذذ بما تمنحه لي جانيت من اهتمام أمومي؛ وكنت أتلذذ أيضا بساعات الدفء التي أقضيها مع سوزان في فراشي البارد مما يدفعنا للانصهار معا في ليالي عطلات نهاية الأسبوع. كنت أستمتع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كثيرا بأحاديثها الجريئة عن عشاقها السابقين وعن مغامراتها معهم. وبفضل هاتين المرأتين أصبح البقاء في مكتب الأدهمي قابلا للتحمل، لكن بفضلهما أيضا فقدتُ أي رغبة في ترك ذلك العمل والبحث عن بديل آخر.

رن جرس الباب فأخرجني من أحلام يقظتي إلى قبوي الضيق، حيث تجثم أمامي تلك الرفوف في هيئة أقفاص ملصق على كل منها حرفا. لا بدّ أن الوقت كان ظهرا آنذاك، وحينما فتحتُ الباب واجهني ساعي البريد الشاب بابتسامة حقيقية: «نحن محظوظون هذا العام...» التفت إلى الخلف مشيرا إلى الوفر المتساقط ببطء، «كريسماس بدون ثلج غير حقيقي، أليس كذلك؟» قال ذلك، ثم سلَّمني رزمة رسائل رسمية، وبطاقة تهنئة مغلفة بظرف أرجواني، مكتوب عليه اسم الأدهمي بخط جميل.

بدا لي جو الحجرة غريبا في سكونه ورصانته، شبيها بمكتب لدفن الموتى حينما دخلت على رب العمل لإعطائه الرسائل، فالستائر البنية اللون مغلقة، ولا إنارة هناك سوى مصباح الطاولة الذي أضاء الصفحات المفتوحة أمامه. انعكست بعض الأشعة المتسللة على إطاري الصورتين ذهبيتي اللون، حيث وضِعتا فوق خزانة الكتب وراءه، كانت إحداهما لابنته الشقراء، والأخرى لحفيديه الصغيرين وقد ارتسمت على وجهيهما ملامح البهجة التي كادت تتمزق تحت وطأة صرامة الغضون المحفورة فوق وجه جدهما آنذاك. رغما عن ذلك، فقد علا وجهه هدوء نادر، جعله مختلفا كليا عن رب العمل المعروف بانفعاليته وسرعة غضبه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قال الأدهمي بنبرة رقيقة، متسامحة: «تستطيع الذهاب الآن إن أحببت...» أثارت انتباهي ربطة عنقه الجديدة بألوانها الصارخة مما جعلني أخمن أنها هدية من شهرزاد بمناسبة أعياد الميلاد. لا بدّ أن شعورا بعدم التصديق قد خالجني حينما أغدق رب العمل عليَّ بإجازة مدفوعة الأجر مدتها أسبوعان بدءا من اليوم اللاحق. سألني ولأول مرة عن أخبار أهلي؛ إن كان أحد أخوتي قد أصابه مكروه في الحرب.

وتحت وطأة شعور فياض بالبهجة والعرفان بالجميل سألته إن كان يحتاج إلى أي مساعدة قبل مغادرتي المكتب. بعد تردد قليل (وبدافع تشجيعي بحت) قدم المحامي إليّ وثيقة مطبوعة بخمس صفحات. طلب مني عمل عشر نسخ مصورة عنها. وبدلا من مراقبة عملي عن كثب، تركني هذه المرة أهبط إلى مكتب السكرتارية لوحدي حيث وضِعت ماكنة التصوير في إحدى زواياه.

هل هي الصدفة السيئة التي جعلت الماكنة خاوية من أوراق التصوير آنذاك؟ كان علي أن أسأل الأدهمي عن مكان صندوق الورق المناسب لهذا الغرض، لكنني بدلا من ذلك سحبت رزمة ورق مركونة على إحدى الطاولات، ووضعتها في الجرّار المخصص لها، إثباتا لخطأ ظنون المحامي حول كفاءاتي العملية!

لم تمض سوى ثوان حتى راح أحد مصابيح التنبيه الصغيرة ينبض بلون أحمر، ثم توقف تماما مجرى أوراق التصوير. تحولت الماكنة إلى جثة هامدة أمامي. ضغطت على كل الأزرار متوسلا بهلع لكن بلا جدوى.. منذ تلك اللحظة كنت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أستطيع مشاهدة رب العمل بعين العقل واقفا ورائي يولول نائحا لما ألحقته من خسائر باهظة للمكتب. ومنذ تلك اللحظة اندفعت ذكرياتي المريرة معه تتدفق كسيول اللافا، فتوقد بحركتها سطحا ظل ولزمن طويل ساكنا. تدحرجتُ بين الصالة بعشوائية، مطاردا أشباحا وعفاريت، مبعثرا غضبي وسعيري فوق الأوراق والكراسي والطاولات.. وحينما هبط الأدهمي شاهد أعجوبة لم يكن ليجرؤ أن يحلم بمثيل لها يوما.

كان المحامي قد هيأ نفسه لمغادرة المبنى؛ ارتدى معطفه الفرو، غطى رأسه بقلنسوة من الصوف ودثر رقبته باللفاف السميك، لكنه ما إن مدّ رأسه إلى مكتب السكرتارية ليودعني حتى واجهه عالم مدهش، جعل أنفاسه تصخب بأصوات غريبة: وسط تلك الخرائب، وقف شبح قادم من كوكب آخر، يحمل بيده معولا عملاقا يتمتم بتعاويذ غامضة.

وسط الصقيع الذي يطوقنا كان بإمكاني، ولأول مرة، رؤية الأدهمي صامتا كأبي الهول، محاصرا بين طبقات عزلة سميكة وبين كلاّبات الفوضى التي قضى أفضل سني عمره للسيطرة عليها.

لا بدّ أن الساعة قد تجاوزت السابعة آنذاك، ولا بدّ أن مصابيح الزينة قد توهجت في شوارع المدينة، ولعل شهرزاد كانت تفكر في الوقت نفسه بذلك الأب الغريب الأطوار، القادم من عالم شهريار والخرافة.

لندن، ربيع 1995

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أشجار السدر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هل انبثقت أمنيته بأن يكون قائدا عسكريا في ذلك اليوم الهابط من حجب الغيب؟

على غير عادتها، أيقظته أمه فجراً، وأيقظت سلمى أيضاً، معلنة أن ثورة قد حدثت. طلب أبوه منها ترك طفليهما راقدين، وقد كاد أكرم يغفو ثانية، ملفلفاً جسده باللحاف السميك، فعند الفجر يروق الطقس ممتزجاً برذاذ البرد الطفيف، الذي يشكل مع الغطاء القطني ثنائيا متكاملا، يبعث على الخدر، ويمنح متعة البقاء بين النوم واليقظة، لكن رائحة البيض المقليّ، والجبن المملَّح الذي راحت أمه تقطّعه في الصحن الخزفي أيقظت الجوع الراقد في أحشائه، ودفعته إلى التلمظ. وما كان من عادة أبويه الاستيقاظ عند الفجر، فما الذي جرى في ذلك المذياع حتى جعلهما يغادران الفراش الدافئ في أحلى وقت للنوم؟

ارتفعت الزغاريد من الجيران، وحينما فتح عينيه، واجهته السماء نفسها، التي اعتاد أن يراها كل يوم، وواجهه "سمسم" كالعادة، رابضا في قفصه، منتظرا حفنة الدُّخن التي يقدمها له كل صباح. إلاّ أنه اليوم بلا مستمعين، ولكأن هدير المذياع قد بعث الخوف في عروقه، فجعله يتقافز داخل القفص بدون توقف.

لم يتغير شيء حوله؛ ما زال بيتهم محتفظا بشكله؛ غرفتان متعامدتان، تطلان على طارمة مسقَّفة، تلتحم بحوش صغير

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مسوَّر بثلاثة جدران عالية. يلمس طابوق الحوش من وراء المخدة، فيجده على حاله، تستقر قريبا منه جرة الماء الفخارية، النديــة، وأشــياف البطّــيخ الأحمــر العاريــة إلا مــن القشــرة الخضراء، موضوعة في صحن من الألمنيوم. ما الذي تعنيه الثورة إذن؟ هل تغيرت القرية أثناء الليل؟ قصر فخم من بلور زرعه جنّي وسطها؟ أنهار من عسل ولبن شقت طريقها إليهم؟

يستطيع أن يرى القرية أمامه حتى حين إغماض عينيه. يقع بيتهم وسط صف بعشرة أبواب، يقابله صف آخر مماثل له، يفصلهما شارع ترابي عريض. كم انشغل في عدّ أرقام بيوت القرية القليلة، حينما بدأ في تعلم الحساب، لكنه الآن يفضل إحصاء النجوم التي لا ينتهي عددها، سعيا إلى اكتشاف أرقام ومجرات جديدة، برغم تحذير أمه من الثآليل التي ستغطي ظاهر كفيه، طالما هو لا يكف عن عدّ النجوم المتلألئة فوق رأسه كل ليلة. عمّ الفرح الجميع بقدوم ضارب الدمّام وعازف البوق وثالث يضرب بالصنج. تأتي تلك الفرقة عادة إلى القرية في الأعياد ومناسبات الزواج والختان. كانت الشمس آنذاك قد بلغت كبد السماء، ومضت تبعث بأشعتها البراقة الحادة عليه فأجبرتهم على التفرق.

اصطحبه أبوه إلى النادي الذي يلتقي فيه الموظفون كل مساء؛ ها هو الشارع المفضي إليه، يمتد طويلا، تتراصف على جانبيه أشجار الصفصاف الرخوة العملاقة، تتقوس صوب نظيراتها في الجانب الآخر، فارشة الطريق بالفيء. على يمينه، بعد عبور القنطرة، تمتد غابة السدر خلف الصفصاف، بأشجارها الكثيفة ذات الأوراق السميكة، الداكنة الخضرة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأشواكها التي تعيق الصغار عن تسلقها، مما يضطرهم أحيانا إلى طرّها بالحجارة لإسقاط ثمرها الناضج: أصوال حمراء تبعث الخدر في الفم، وخليط من السائل الكثيف الحلو-الحامض المذاق، يقطر في الفم. وكم حذرته أمه من ضرب أشجار السدر، إذ سيؤدي إلى حظ سيئ يصيب عائلته، سلالة وراء أخرى. لكن ما من حيلة ثانية تسمح بالتقاط تلك الحبات الصلبة اللذيذة. كم يفضلها على ثمار التين التي ما تكاد تسقط فوق الأرض حتى تبطش عليها كقطع العجين، منفلشة، ومتعفرة بالتراب، وقد سأل أباه عن صحة ما تدعيه أمه، فأجابه ضاحكاً: خزعبلات. وحينما استفسر عن معنى تلك الكلمة، ذكر له عبارة أكثر غموضا من الأولى: خرافات.

وهما يتجاوزان المدرسة، ارتدّت إلى ذاكرته قصة برج بابل التي حكاها لهم المعلم يوما: كيف أن البشر أرادوا بلوغ السماء بمواصلتهم بناء ذلك البرج ليل نهار، لكن الرب فرقهم بأن جعل على لسان كل منهم لغة لا يفهمها أحد سواه، ففقدوا قوتهم، وتشتتوا في أقاصي الأرض، غربا وشرقا، شمالا وجنوبا.

لم يلمح أكرم أي تغيير حوله عند اجتيازهما الممرّ المفضي إلى النادي: ما زال سياجا الآس على حالهما؛ خضرة أوراقهما داكنة كالعادة، وتعلو حبيبات بنفسجية أغصانهما الرقيقة اللدنة. كذلك، ما زالت ورود الجوري الحمراء والصفراء والبيضاء تبعث العبير نفسه، وفي الداخل واجهه ذلك الجو البهيج، الذي لا مثيل له إلا في الأعياد حيث الابتسامات والملابس الأنيقة والشاي المحلى بحليب النستلة واللقم المغطى بالطحين. كانت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الصالة غاصة بالرجال، وفي زاوية، جلس مع مجموعة منهم. توقع أكرم أن يطلبوا منه كالسابق قراءة قصيدة من تلك التي يحفظها عن ظهر قلب: "اليتيم"، "العلم"، "مليكنا" أو "الشجرة"، لكنهم في ذلك اليوم كانوا منشغلين بحدث آخر لم يشاهدوا مثيلا له من قبل، إذ برغم البهجة الطافحة على أساريرهم، بدوا متوترين، يلازمهم أحساس من لا يعرف ما يخبئ له المستقبل، وهذا ما زرع الخوف في نفسه منهم.

ملكته الدهشة عند رؤيته صورتين مطبوعتين على ورق عادي، أزرق فاتح اللون، لعسكريين أحدهما بعمر أبيه وآخر أصغر منه قليلا، ملصقتين على الجدار. في الوقت نفسه، اختفت صورة الملك الكبيرة الملونة ذات الإطار المذهب والمغطاة بالزجاج. سأل أكرم أباه عن هذين الرجلين، لكن كلماته ضاعت وسط حمى الأحاديث والضحكات الصاخبة، ووسط هدير الأناشيد والمارشات العسكرية المنبعثة من المذياع الكبير.

لندن، ربيع 1990

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حالة حصار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مضى زمن طويل على قاسم عبد الجليل، وهو يشاهد حلما واحدا، تقع أحداثه في قريته التي غادرها مكرها إلى بلدان نائية. تتغير الوجوه والتفاصيل كل مرة في حلمه، لكن التأويل واحد. وهو موقن بأن ما يسجله في كراسته مختلف عما يراه، فكأنما تقوم أصابعه بإجراء صياغة أخرى لأحلامه العسيرة على الاسترجاع، إذ في لحظة انبثاق الحلم أمامه، يكون قد هبط إلى أعمق أعماق الكرى، وهو غالبا ما يصحو فزعا بعد بلوغه حالة لا يستطيع فيها الإفلات من مصير مرعب فيغمره الفرح أحيانا أو اللامبالاة، وأحيانا تغوص المرارة في نفسه، من دون توقف. يقرر حينذاك كتابة حلمه تخلصا من آثاره، في وقت تكون ذاكرته قد محت مادة الحلم نفسها، فيمضي في تسجيلها بالشكل الذي يفترض أنه قد جرى في مخيلته. وحين انتهائه من الكتابة، يكون قد تحرر من وطأة قبضته. يمنح قاسم عناوين مختلفة لحلمه، يطلق على أبطاله أسماء مختلفة. إنه يسعى في كل ذلك إلى تشييئ أحلامه، بتحويلها إلى كيانات منفصلة عنه كلياً.

* * *

قالت المضيفة، بارتباك واضح، عبر مكبّر الصوت: "سيداتي وسادتي الأعزاء، نظرا لهبوب إعصار عنيف من القطب الجنوبي، متوجها إلى الشمال الغربي، سرعته مائتا ميل في الساعة، ومصحوبا بزوابع رعدية خطيرة، نضطر إلى الهبوط في مدينة "السابلة". سنواصل رحلتنا حال تحسن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الظـروف الجويـة. يتمنـى قائـد الطـائرة ومسـاعدوه أن تقضـوا أوقاتا طيبة في هذه المدينة الساحرة..."

ها هو يرى نفسه في قريته؛ كل شيء على حاله مثلما تركه: البيــوت، الشــوارع، الســماء، الحقــول، الشــمس الســاطعة، البساتين... يندفع إلى بيته السابق، حاملاً حقيبته، يحيط به أبوه، أمـه، إخوانـه، أخواتـه، أقاربـه، مبتهجين لعودتـه. يمعن النظـر فيهم، يندهش لمرآهم، كـأن لـم تمسسـهم أصـابع الـزمن الطويـل، والعالم رخو بطيء الحركة، مفعم بـالود والألفـة، ترفل عرائش الكروم في حديقة البيت الخلفية. يرمي قاسم أخيرا عنـه معطفه الثقيل الذي ظل يلفلف جسده فيه طـويلا، محتفظـا معـه بوحدتـه؛ لا انتظار ممل للرسائل، لا أسفار إجبارية، لا وجوه غريبة. إنه الآن بينهم، تشده إليهم خيوط خفيـة، تمنحـه نبضـا حيويـا، يشـعر بأنه عاد إليهم، ليملأ فراغه ثانية بينهم.

ذهب إلـى حجرة نومـه التـي ظلـت علـى حالهـا. كـان التعب يسري في مفاصله. وقبل أن يستلقي في فراشه، لمح من النافذة رجلا يحدق صـوب بيتـه، واقفـا فـي طـرف الشـارع الآخـر، فلم يأبه به، لكن قبل انسحابه، لمح رجـلا آخـر، قادمـا مـن بعيـد، ثـم ثالثا فرابعـا... تتـالي حضـور الأغراب، حتـى شكلوا سدا يتقدم نحو الباب. اختفت الشمس وسط غيوم داكنـة، فعتمـت الحجـرة. اختفى أقاربه، وتكهرب المناخ بالهمسات الغاضبة. هـا هو يجد نفسه وحيدا، محاطا من كل جانب بشرر تلـك العيـون المتـوفزة، تقتـرب إليه، يسمع وقع أقدامها، يغمره في تلـك اللحظـة إحسـاس عميق بالندم على ركوبه تلك الطائرة، على سفره، على التفكير بقضاء إجازته في بلد آخر..

* * *

منشورات «ألف باء AlfYaa»

اعتاد كاظم على التسكع في شارع المدينة الرئيسي كل يوم، ذهابا وإيابا، حيث تصطف على جانبيه المحلات الكبيرة والصغيرة، عارضة نماذج من سلعها من وراء الواجهات الزجاجية المضاءة. أثارت انتباهه مرارا تلك اللافتة المثبتة دوما فوق باب حديد مفتوح قليلاً: "معرض السلع الجلدية الحديثة: تنزيلات عامة". لكنه لم يجد حافزا قويا لدفع بابه، والولوج إليه، ربما للعتمة التي تعطي انطباعا بأن هنالك عيونا ترصد العابرين من ثقوب صغيرة على واجهته. كان يتوقف أحيانا جنب المخازن المجاورة له، متجولا في أروقتها، أو يعبر الشارع إلى المحلات المتخصصة ببيع الهدايا والتحفيات، فيقضي فيها وقتا طويلا.

هل هي حالة فضول قوي أو ضجر شديد، جعلته يدفع ذلك الباب الرمادي الموارب ظهيرة نهار قائظ، ليدخل إلى أغرب صالة رآها في حياته؟ غطت الجلود أرضيتها، وفي الوسط انتصبت أعمدة خشبية، معلقة عليها حقائب وأحزمة وأحذية وسياط جلدية. احتشدت على الجدران السلع الجلدية المنزوعة عن غزلان وخراف وأبقار ونمرة ودببة. ظهر أمامه سُلّم بثلاث درجات خشبية، تفضي إلى شرفة تحتل الجانب الأيمن من الصالة، حواشيها مسورة بدرابزون خشبي. حينما التفت وراءه، وجد أن الباب قد أغلق، ووقف رجلان عملاقان على طرفيه، يشدان أذرعهما على صدريهما بوجهين عابسين. فكر بالصعود إلى الشرفة لمشاهدة المنتوجات الأخرى، مؤملا النفس بانفتاح الباب ثانية عند قدوم زبائن آخرين.

لم ير في تلك الشرفة أية سلعة. كانت هنالك طاولة عريضة من خشب الصاج الأحمر، يجلس خلفها رجل في نهاية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأربعين، ووراءه عُلِّقت على الجدار بنادق صيد وسيوف وأقواس. صوب نظرات نارية على كاظم، جعلت الدم يجمد في عروقه، وجعلته يوقن أنه قد ارتكب إثما كبيرا بتجاهل ذلك المحل طويلا. قبل أن ينطق بأية عبارة توسل، تهدف لاستدرار القليل من الرحمة، سمع صوتا مدويا في الصالة: "سنسامحك هذه المرة إذا استطعت أن تعبر الصحراء ركضا".

ها هو يجد نفسه وسط حشد من الناس، يشاركه العقوبة نفسها، وجوههم شاحبة، أعينهم منغلقة، لكأنهم منوَّمون مغناطيسياً، يعلو فوقهم التراب، ينز من أجسادهم العرق الممزوج بالغبار. أصابه الإعياء بعد جري طويل، تحت شمس حارقة. تباطأ قليلا، انفلت من الجمع، اندفع صوب مجموعة بيوت منتشرة إلى يسار ذلك الدرب الواسع. دق جرس أول منزل وصل إليه. ظهر له رجل عجوز. سأله إن كان بإمكانه استعمال هاتف بيته، فوافق الآخر. خطرت في ذهنه فكرة الاتصال بأحد أصدقائه، لا بد أنه سيأتي فوراً لإنقاذه، وحينما وضع سماعة الهاتف فوق قاعدتها، وانتقل إلى النافذة المطلة على الشارع، شاهد بدلا من عربة صديقه، سيارات كثيرة تحاصر البيت، ويهبط منها رجال مسلحون، يزحفون ببطء نحوه .. هل وشي صاحب القصر به، أم صديقه؟

* * *

مقطع من مذكرات قاسم عبد الجليل السرية.

"فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه... "*

---

* من قصيدة مالك بن الريب: شاعر يرثي نفسه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان حدثا استثنائيا: عند بلوغي الأربعين، قرر أبي التدخل لأول مرة في شؤوني الخاصة، وهو الذي تجنب دوما مضايقتي، مفترضا أنني قد امتلكت وعيا كافيا يؤهلني لتحمل مسؤوليات حياتي، منذ خلعي أول ضرس لبني.

من ناحية أخرى، كان هناك دائماً أمامي، جالسا على الكنبة يتابع بصبر أيوبي خطوات حفظ أختي الصغرى، لنص شعري صعب، بيتا بيتا، أو قادما من السوق بسلة الخضار واللحم، أو منكبا على مساعدة أمي في تقطيع الباذنجان إلى شرائح.

كان هناك في متناول اليد بدماثته المتواصلة، بمرحه الذي لا يكبو أمام الأمراض والملمات، باستعداده لتقديم المساعدة، دون تردد، للصغير والكبير، بانفتاحه للإجابة عن أي سؤال يخطر في ذهن أحد أبنائه. وكنت هناك في الطرف الآخر متجهما حانقا مملوءً بصخب الأحلام الكبيرة الساعية إلى تغيير العالم نحو الأفضل! متسائلا بغضب عن سر فرح شيخي وانسيابيته الساذجة. وحينما حملت حقيبة السفر، كان واقفا أمامي، راسما ابتسامة عذبة، ملؤها حب وكبرياء: لا نصيحة أخيرة، لا طلب خاص، لا اقتراح صغير للمستقبل، لا شيء... ولم تكن الأيام الأخيرة سوى لقاءات متواصلة بالأصدقاء، دون أن تراودني الرغبة للبقاء معه ساعة واحدة، أسأله خلالها عن طفولته ومراهقته، عن أبيه وأمه، أسئلة تسعى لمعرفة ما تركه الموتى في دمائي من طبائع وعادات، إذ بعيدا عن الأعين، ما تزال حفر التراب تلك مشدودة بألف آصرة إلى عالم الأحياء. الموتى والأحياء ممتزجون بعضهم ببعض، الماضي الذي لم نعشه يتقمص حاضرنا والمعرفة الحقة هي التي تبدأ بالتاريخ وتنتهي به.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكنني كنت مغمض العينين مشدودا إلى أوهام كبرى، متلهفا لالتهام مئات الكتب، موضوعاتها تمتد من الاقتصاد مرورا بالفلسفة ووصولا إلى علم الذرة. مشدودا إلى اللانهاية، بدلا من البدء بالتعرف على أصابع قدميّ، التأكد على الأقل، من أن عددها لا يزيد عن عشر. حاسبا أنه هناك، موجود في مكانه، وسفري لن يكون إلا مؤقتا: عامين أو ثلاثة، ثم أرجع إلى بيتي، محملا بخبرة حياتية أوسع، برؤية أكثر شمولية، بقدرة أكبر على العطاء والعاصفة التي اجتاحت الوطن لن تلبث أن تزول.

هكذا، مملوءً بالأوهام، تركت البيت، رمت أمي ورائي سطل ماء، ناثرة كلمات الدعاء مع الدفقات المسفوحة على الشارع الترابي. أجنحة تحملني إلى "الرطبة"* لتقودني عبر طرقات جديدة، عبر شموس جديدة، عبر بحار لم أرها إلا في كتاب الأطلس، وكم لوّنتها بالقلم الأزرق في دفتر الواجب المنزلي.

وهأنذا ألتقي به بعد عشرة أعوام. هذه المرة، سيقدم لي نصيحة ثمينة؛ نصيحة عملية، تحفزني لإعادة النظر في حياتي، تدفعني للبدء من جديد. هذه المرة، يقدم نصيحته بعد مغادرته عالم الأحياء بثمانية أعوام، يقدمها في حلم قصير، أنقله من قصاصة الورقة المركونة فوق الكومودينو الصغير جنب فراشي:

"شاهدت هذه الليلة حلما غريبا. كان أبي يعزف على الكمان عزفا حزينا ساحرا في غرفة شبه معتمة. دخلت من الباب

* مدينة واقعة على الحدود العراقية السورية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخلفي عليه، حاملا معي كمانا، فتوقف عن العزف، فاسحا المجال لي، لأخذ مكانه، وحينما أمررت القوس فوق أوتار الكمان انبعثت أصوات متنافرة منه. نصحني أبي بالبدء، أولا، بتعلم العزف على آلة بسيطة كالربابة. ناولني صفيحة فارغة مشدود في وسطها وتر واحد.

رأيت نفسي ماسكا بالربابة، باعتزاز كبير، ومتربعا بفرح على الأرض الترابية محركا بإتقان وترها الصدئ الوحيد.."

لندن، خريف 1991

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حكايات كليلة ودمنة المفقودة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بيت الحلزون

حينما خلق الرب آدم وحواء، ظلا دهراً راقدين، جنباً إلى جنب، كعمودي ملح.

قال الرب ضجراً: سأخلق الرغبة لهما، فكانت الرغبة.

قالت الرغبة: ربّي، إني أوشك على الانطفاء.

قال الرب: ليكن الحب.

قال الحب: إلهي، اخلق لي من يعينني.

قال الرب: ليكن الوجد.

قال الوجد: لا أقوى على البقاء طويلاً وحدي.

قال الرب: لتكن الغيرة.

قالت الغيرة: ما جدوى حياتي من دون ابن يرثني؟

قال الرب: ليكن الألم.

قال الألم: عساك إلهي تخلق لي عوناً.

قال الرب: لتكن العداوة.

قالت العداوة: سيدي أحتاج إلى أخت تؤازرني.

قال الرب: لتكن الكراهية.

قالت الكراهية: سأبلى من دون طفل.

قال الرب: لتكن الحرب.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قالت الحرب: ألن تجعل حداً لشروري؟

قال الرب: ليكن الندم.

قال الندم: اخلق لي من يعقبني.

قال الرب: ليكن السلم.

قال السلم: امنحني مولاي زوجاً رؤوماً.

قال الرب: لتكن السكينة.

قالت السكينة: إلهي سأموت من الضجر،

فصاح الرب غاضبا: لتأتِ الرغبة صاغرة بين يديّ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخطوة الأولى:

ينبهر الطفل بأصابعه القابضة للمرة الأولى على قلم الباستيل، يضغط به فوق صفحة ورقة بيضاء، تنبثق منها نقطة داكنة شبيهة بحلمة أمه. يحرك قبضة يده قليلا، يظهر له قوس قصير، فتعصف في دمائه الدهشة.

ها هي نملة تتقدم صوبه، تتسلق بمشقة دفتره الكبير، غير آبهة به، تمضي في خطواتها الدؤوبة من دون خوف. يحنقه غرورها وصلفها. يدفع بقلمه، فيترجرج القوس تحت ناظره، متطاولاً، حتى يتَّحد بنقطة البدء: حلمة أمه.

تقترب الزائرة الجريئة من السور الذي انتصب فجأة أمامها. تتلاشى سرعة أقدامها العارية تدريجاً، حتى تتوقف حائرة عند قاعدته. تنسحب من ذلك الموقع لتمضي شمالاً، فيظهر الحاجز السميك لها ثانية. تندفع بشتى الاتجاهات سعيا إلى الخروج من ذلك السجن، لكن من دون جدوى.

يرتفع صراخها عالياً، حتى تهتز لصداه جدران الحجرة، تنتقع الورقة بدموعها الغزيرة، تركع أمامه ذليلة، تتوسل به، كي يفتح لها أحد أبواب السور، لكن فرحه يزداد أكثر فأكثر.

من كل صوب تظهر كثبان نملية متماوجة؛ ابتدأت أولا على هيئة بقع سوداء متفرقة، متحركة بوجل صوب السور، تلتها مشاورات ثنائية وثلاثية، ثم انسحاب كلي من الساحة، لتظهر بعد فترة قصيرة جحافل هائلة منها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يراقب الطفل بفضول شديد ما راح يجري حول سوره: ها هي خطوط من النمل تتراكب بعضا فوق بعض لتشكل سلالم ممتدة من الأرض حتى قمة السور، تزحف نحوها أعداد غفيرة أخرى، فتقوم بالتسلق فوقها إلى سطح السور. من الطرف الداخلي للدائرة، تبدأ تلك الجموع بإدلاء سلّم آخر إلى القاعدة.

تندفع السجينة إليهم بخفة، تحت صرخات التشجيع والتحفيز، غير مصدقة باقتراب الخلاص. تتشبث بأول سلّم، تدفع بنفسها إلى الأعلى، خطوة ثانية، وثالثة، لكن دواراً يصيبها. يتدلى خيط آخر فوق السلّم، بسرعة فائقة، ليقوم بسحبها حتى سطح السور في اللحظة المناسبة.

تتصاعد أهازيج النصر فوق السور بعد أن أنجزت تلك الفرق مهمتها بنجاح كبير، تقاطعها هتافات النمل المحتشد حول السور. تحيي السجينة أبويها المنتظرين بلهفة قدومها تحت أقدام السور.

ينتاب الطفل حنق رهيب، وهو يشاهد جموع النمل توشك على الإفلات من قبضته، بعد اقترابها من الأرض المحيطة بالسور، فيرتفع صراخه. يمد يده، بخفة مثيرة، إلى قنينة طلاء الأظافر الملقاة قرب حقيبة أخته الكبرى، فيفتحها بأسنانه وأصابعه، وبالسائل الأحمر، يرسم سورا آخر حول السور القديم.

هل كان الطفل على علم بأن رائحة ذلك الطلاء تقتل لدى النمل القدرة على اختيار الاتجاه الصحيح؟

ها هي الطوابير النملية تغذ خطاها بين الخطين الأسود والأحمر مكونة خيطاً ثالثا بينهما، لكنه مختلف عنهما بشيء

منشورات «ألف باء AlfYaa»

واحد فقط: وسط دائرتين مرسومتين على صفحة بيضاء، هناك دائرة سوداء تدور كمكوك الساعة باتجاه معاكس لحركة عقربيها، تدور وتدور وتدور ... ها هو الضجر يحاصر الطفل، أخيراً، من سوره، فيغلق دفتر رسمه ويمضي راكضاً إلى حديقة داره.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المغفل وسيد الحقل

في تلك اللحظة فقط، انقشعت عن عينيه غشاوة العمى السعيد، لتواجه مشهداً غريباً، غير قابل للتصديق، لكن الخوار المتضرع والحبال الملتفة حول الأطراف والأعناق، وروائح الهلع العطنة، زعزعت ظنونه: ها هو مالك الحقل قد شمَّر عن ذراعيه، حاملاً سكيناً طويلة، مرتدياً مريلة صفراء، عليها بقع حمراء، وبين قدميه همدت بقرة، ترتجّ إحدى قوائمها، من وقت إلى آخر، بحركة مستسلمة بطيئة.

انكمش على نفسه، تشبث في مكانه، ناكشاً حوافره بالتراب، ساحباً جسمه الثقيل إلى الوراء. كان متأكداً من استحالة الهرب عدواً، لكثافة الشحم المتراكم على بطنه وقوائمه، طبقات فوق أخرى، وكل ما يملكه من سلاح قرناه الحادان. كيف يمكنه استعمالهما الآن وهو لم يقم حتى بشحذهما يوماً؟ إذ لم يلق منذ ولادته سوى الرعاية والحب من الجميع. إضافة إلى ذلك، هل يجوز له إلحاق الأذى يزيدان الذي ظل يعلفه كل يوم؟ كم كان يربت على كتفه ويداعب رأسه الصلب كلما اقتاده إلى الحظيرة وقت الغروب، ولطالما أطفأ ظمأه بسطل ماء بارد في أوقات القيظ الشديد.

ها هو الآن يقوده بحبل غليظ، يقف قريباً من قرنه الأيسر، وتكفي المسافة الفاصلة بينهما ليبعج ظهره من دون عناء. لكنه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لن يكون أبداً ناكرا للجميل. سيتحدث معه الآن بلطف، مثلما اعتاد أن يفعل من قبل. همس في أذنه ثلاث مرات، "اتركني وشأني". إلا أن زيدان ظل قابضاً على الحبل بإحكام، وظل وجهه متجهماً، وعندما حرك رقبته يميناً انسحبت ذراع زيدان صوبه، فكاد الحبل ينفلت من كفه. شد الآخر على الحبل أكثر فأكثر مما سبب ألماً في رقبته.

لا بد أن زيدان قد أساء فهم طلبه. سيحاول الآن أن ينبهه بطريقة أخرى من دون أن يصيبه بأذى. أرسى قائمتيه الخلفيتين في الأرض الهشة بقوة، ثم أمال جسمه يميناً، مستعملاً ثقل شحمه وعظامه ولحمه، حتى انزلقت قدما زيدان، فتهاوى على الأرض، وانفلت الحبل من كفه. ها هو يخلّف وراءه المشهد البشع. ينفتح الحقل مكشوفاً على مرمى بصره، من دون حواجز، منتهيا بأجمات كثيفة وأشجار دائمة الخضرة، تعقبها هضاب جرداء غير مأهولة بالناس. سيكون في مأمن إذا استطاع بلوغها. لكن كيف يمكنه المشي إليها بجبة شحمية سميكة تغلفه وتجره إلى الأرض؟

قبضت ذراعان غاضبتان الحبل ثانية، فاختفى عن عينيه مشهد السماء الزرقاء والطيور المحلقة في الفضاء، ثم ضاقت الأنشوطة حول عنقه حتى كاد يختنق. وعندما استسلم لقيادهما، ارتخت الحلقة المشدودة فوق رقبته قليلا. ومع قطرات الدمع والعرق التي ملأت مقلتيه الواسعتين، والرغاء الذي ظل يسيل من طرفي برطمه الأسفل، كان بإمكانه رؤية زيدان وعلى عينيه يتقافز الشرر، مولولاً بشتائم حانقة، وعندما حاول التشبث بمكانه انشدت الأنشوطة حول عنقه أكثر فأكثر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دخل عاملان إلى السقيفة، سحبا البهيمة الجاثمة وسط الأرض الإسمنتية إلى حجرة مجاورة. رجعا مرة أخرى، فدفعا عِجلاً مشدودة قوائمه، مثنى مثنى، حتى وضعاه بين قدمي رب الحقل. جره زيدان إلى المكان الشاغر، انقض عليه العاملان الآخران فشدا قوائمه بالحبل، وصرعاه جانباً. أرخى زيدان الحبل عن رقبته فمضى يغرف أنفاساً سريعة ملء رئتيه.

ما الذي سيفعله سمير إذا شاهده على هذه الحال؟ كانت طفولة سعيدة قضاها مع ابن سيد الحقل. جمعتهما صداقة عميقة منذ بلوغه الشهر الرابع. اختفت في ذلك الوقت أمه، فأصابه الحزن عليها، وأمضّه الحنين إلى حليب ضروعها الدافئ. التقيا عصرا وسط الحقل. أحب سمير النجمة المنقوشة على جبهته ولونه الخمري الصافي، وعينيه العسليتين. كانا يلعبان معاً كل يوم، يمتطيه الآخر أنّى شاء، لينقله مبتهجا من مكان إلى آخر، وعندما فقد سمير أول أسنانه اللبنية، بدأ قرناه يحكانه من تحت صدغيه، فيضطر إلى فركهما بأجسام صلبة. ما أن بزغا حتى راح صديقه يمسكهما عند اعتلائه ظهره، فيضرب بطرفي قدميه على أسفل بطنه محفِّزا إياه على الركض أسرع فأسرع. تكونت لديه قناعة بأن قرنيه قد خُلقا لعبة لذلك الطفل. كانا يتدافعان أحياناً، يمسكه سمير من قرنيه، فيطأطئ رأسه، ثم ينطلقان في التباري، يفوز أحيانا، ويخسر أحيانا أخرى.

اندهش لمشهد الأبقار مثخنة مثله بالشحم، وشبيهة به إلى حد كبير. تذكر كيف كان رب الحقل يداعبه، ممسداً على ظهره. وأحيانا يقتاده إلى قصره برفقة ابنه، فيلعبان منعزلين عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الآخرين. لكن الأمور تغيرت فجأة: أقصِي ابن سيد الحقل عن عينيه، ووضِع هو في حظيرة منفصلة، مع وجوه أخرى لم يألفها من قبل. مضى زيدان يسرف في إعطائه العلف المزدوج بالشعير والشوفان، فاعتبرها دليلاً على رضى الملاّك عنه وحبه له. اختفت تلك الفرص بالتنزه كل يوم مسافات طويلة وسط المروج الواسعة. كانت بعض الأنعام تختفي فجأة ولا تعود إلى الظهور ثانية، فعزا الأمر إلى وضعها في حظائر أخرى. كانت شهيته للطعام تتزايد يوما بعد يوم، إلى الحد الذي لم يعد يرفع رأسه عن سطح الأرض، مخافة أن تفلت نبتة صالحة للاجترار من أضراسه القوية.

قال سلطان الحقل، "لنذهب إلى الغداء الآن"، وعندما مر من جانبه تجاهل حضوره كلياً. لم تبق حوله أي بهيمة حية. ساد السقيفة صمت يقطعه من وقت إلى آخر طنين الذباب، وصدى خوار مبتهج قادم من الحقل... قرب الجدار المقابل له استقر رأس بقرة، تمعن النظر إليه في أسى، بعينين واسعتين، مكحلتين، جامدتين. وكم تمنى أن يلعق وجهها آنذاك.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

آخر البيادق

انتهت المباراة بينهما، كالعادة، بالتعادل: الملكان الأبيض والأسود وجها لوجه، ويقابل بيدق أبيض بيدقاً أسود، وسط رقعة الشطرنج. وعلى الرغم من أن الوقت الذي استغرقاه في اللعب أربع ساعات تقريبا، لكنها بدت للبيدقين الوحيدين أطول بكثير.

قال المضيف لضيفه بارتياح كبير:

"كانت لعبة شيقة".

"نعم لكنني لو لم أحرك الفيل في البداية، لكانت النتيجة مختلفة".

"أنت تردد ذلك دائما: لو لم أحرك الفيل، لو لم أحرك القلعة، لو لم ...".

"مع ذلك، كنتُ في موقع المهاجم طوال المباراة".

"العبرة بالنتيجة".

حمل كل منهما كأسه، وذهبا إلى الحديقة. جلسا على كرسيين هزازين وجهاً لوجه، فمضيا يحللان مجرى المباراة خطوة خطوة، ثم شربا نحب صداقتهما، مخلفَّين وراءهما الضجر، الذي حل بهما قبل البدء باللعب، وصندوقاً خشبياً مملوءً بالقتلى.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قال الملك الأبيض لنظيره الأسود:

"نحن كنا نعرف النتيجة".

"نعم، ولذلك لم نتأثر كثيراً بمسار الأحداث العنيفة".

"نحن في كل الأحوال لا يلحقنا ضرر كبير، أليس كذلك؟"

فشربا آنذاك نخب صداقتهما المتجددة، مخلفين وراءهما صندوقاً خشبياً مملوءً بالقتلى.

قال البيدق الأبيض: "غريب أننا بقينا أحياء".

قال البيدق الأسود: :نعم، والأغرب منه أننا نتحدث الآن معا بكل مودة".

قال البيدق الأبيض: "كنا مغفلين قليلاً".

قال الآخر: "لم نكن نعرف أنها مجرد لعبة."

شربا نخب سلامتهما، مخلفين أمامهما صندوقا مملوءا بالقتلى وبقعا حمراء على الرقعة المربعة، وعلى ملابسهما الممزقة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطيران الأخير

تطير تلك الحمامة منفلتة من قبضة الفخ بأعجوبة: شبكة كبيرة هبطت فوق سرب الحمام الذي أغرته كثبان القمح المتناثرة بغزارة على الأرض، جعلت أفراده تفقد صوابها، وتقطع طريق رحلتها إلى حين، لتنهمك في التقاط الحب بدأب. ولم يخطر ببال أي منها أن مخالبها الصغيرة تعبر فوق خيوط شبكة، أعدها صياد ماهر ظل ينتظرها عاما بعد عام. وها هي الحمامة الوحيدة التي نجحت بالفرار تطير إلى أعلى؛ تخفق بجناحيها فرحة، تتقلب في السماء مرارا. لكن إلى أين تذهب؟ على رغم تلك الحرية الهائلة التي انتزعتها بمعجزة، فقدت ذاكرتها المسار الذي اعتادت أن تمضي فيه مع رفيقاتها.

ها هي تندفع في خط مستقيم صوب الشمس، لكن جسمها يستدير تدريجيا من دون إرادتها إلى نقطة البدء: الشبكة. وأينما تمضِ ترجع إلى الموقع ذاته: غربا، شرقا، جنوبا، شمالا... وعندما حل الغروب، غمرها خدر الإعياء فدفعها ببطء صوب رفاقها.

التفت الصياد يمينا، فوجد طائرا قرب حذائه العسكري، وعندما مد يده إليه، سقطت جناحاه على الأرض؛ تطاير منهما وفر رقيق، ولم يقبض في يده سوى حفنة رماد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخان السعيد

عندما تمَّ لأرشد خان التخلص من آخر خصومه، قرر أن يهجع قرير العين يوماً كاملاً. ولكي لا تزعجه أي نأمة قد تفلت من خلف جدران قلعته المنيفة، أمر رعيته بالاحتفال معه نوماً، مدة يوم كامل مدفوع الأجر. مقابل ذلك، منع جميع الناس من مغادرة بيوتهم نهاراً وليلة واحدة، ولم يبق في الخارج سوى الحرس والعسس الذين ظلوا يجوبون الطرقات الفارغة، على رؤوس أصابعهم، حفاظاً على الأمن، محاطين بالصمت القسري والوحشة.

لكن الأعداء تسربوا من دون حياء إلى سرير أرشد خان، لحظة دخوله مملكة الكرى، التي حرم منها أعواماً كثيرة ليعيدوه ثانية إلى عالم الصحو المقفر. ظهروا له هذه المرة، في حمّام شاسع ذي قبة ماسية، وبلاط من الرخام الزبرجدي. كان بإمكانه رؤيتهم بوضوح، على رغم انتشار البخار في أرجاء القاعة الدائرية، بعضهم من أقاربه، بعضهم من أصدقائه، بعضهم من وزرائه، بعضهم من ضباطه... ها هم جميعا، يجلسون على حافة مصاطب دائرية، يتجاذب أفرادها أطراف الحديث المتواصل، بمزاج رائق ومرح. أحيانا، كانوا يلتفتون إليه؛ ينظرون إليه قليلاً، بحيادية مطلقة، ثم ينصرفون عنه إلى حواراتهم المتجددة. كم تمنى أن يكون مثلهم عارياً، إلا من تلك الوزرة التي تلتف حول خصر كل منهم. لكن أنّى له أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتخلص من عمامته ودرعه وبرنسه الصوفي؟ ها هو جسده يغلي بالعرق داخل صدفته الجهنمية، فيغرق بالعرق والخيبة، ليستيقظ ثانية في قلب الظلمة.

ما جدوى نصب آلاف المحارق والمقاصل للعصاة إذا ظلت أرواحهم من بعد آمنة مطمئنة، تحلق أنى شاءت بين أجفانه؟

من نافذة ديوانه الواسع بدا العالم لعينيه الموغلتين في الأرق، مزيجاً متنافراً من أشباح وأضواء، وفوق الأفق تململ شفق أرجواني صوب سمت السماء مختلطا بزرقة داكنة. إنه الليل مرة أخرى، وعلى متنه يزحف الأعداء صوبه، لكنهم هذه المرة مجردون من أسلحتهم، ومن أجسادهم...

للتخلص من خصومه الموتى نهائياً، سيعلنها حرباً شعواء ضد ممالك الروم، تتيح لعدد هائل من أتباعه الأوفياء فرصة الانعتاق من أجسادهم... هناك في طرف العالم الآخر، سيقومون بمهمتهم الحقيقية التي أوفِدوا من أجلها: مطاردة ضحاياه، والاقتصاص منهم بدون رحمة.

في اليوم اللاحق، أصدر أرشد خان مرسوما يقضي بإلغاء عقوبة القتل في سائر مملكته، وفي اليوم الثالث، كانت الحرب.

لندن، خريف 1989

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صدر للمؤلف

1. **"العبور إلى الضفة الأخرى"** (قصص)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
2. **"أحلام الفيديو"** (قصص)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. . صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
3. **"رمية زهر"** (قصص)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا
4. **"خيانة الوصايا"** (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق ـ سوريا
5. **"مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس"** (كتاب يوميات) ، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان
6. **"كوميديا الحب الإلهي"** (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
7. **"لعبة الأقنعة"** (قصص)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
8. **"حين تغيرنا عتبات البيوت"** (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
9. **"جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS"** (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لؤي عبد الإله

- كاتب عراقي وُلد في 2 كانون الثاني 1949 في بغداد. قضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية متنقلاً مع أسرته بين قضاء الحويجة في محافظة كركوك، ومنطقتي أبو غريب والزعفرانية الأولى الزراعيتين، وذلك بسبب تنقل والده عبدالاله أحمد محمد الذي كان يعمل موظفاً في وزارة الزراعة.
- أهم هذه المحطات كانت تلك التي قضاها في الزعفرانية الأولى، على أطراف بغداد، وهي منطقة تقع على ضفاف نهر دجلة وتحيط بها من كل جانب بساتين النخل والحمضيات. وفي ثانوية جسر ديالى أنهى دراسته الثانوية، وكان الوصول إليها يتطلب ركوب الباص من وسط بغداد إلى منطقة المدائن.
- وقد تشكلت له خلال سنته الإعدادية مجموعة صداقات قائمة على القراءة في مختلف المجالات، وتبادل الكتب والمقالات، وكان للأستاذ الراحل محمود الريفي دور كبير في توجيهه نحو الأدب والفلسفة خلال عامَي 1964-1965.
- بعد أن أنهى دراسته الجامعية وحصوله على بكالوريوس في الرياضيات من كلية العلوم / جامعة بغداد، خدم لعامٍ واحد في الجيش، ثم عُيّن مدرساً للرياضيات في ثانوية العطيفية حتى عام 1976، حيث سافر ضمن بعثة تعليمية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عراقية إلى الجزائر، وكان من المقرر أن يعود إلى العراق في عام 1980 بعد انتهاء إعارته، لكنه قرر البقاء في الجزائر والعمل بموجب عقد شخصي كمدرس للرياضيات في معهد للمعلمين بمدينة وهران.

- نشر أول قصة قصيرة له في مجلة **الآداب اللبنانية** عام 1983 تحمل عنوان" **طيور السنونو**."
- انتقل **لؤي عبد الإله** إلى لندن عام 1985، حيث عمل في عدة مجالات منها التعليم والترجمة.
- ظل **لؤي عبد الإله** منذ وصوله إلى لندن عام 1985 يعمل في مجالَي الترجمة وتدريس الرياضيات أولاً في معاهد مسائية مختلفة، ثم بدأ قبل حوالي عشرين سنة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في معهد **سواس** و**جامعة ويستمنستر** وجامعة **أغا خان**.
- منذ أواخر الثمانينيات وحتى الآن، نُشرت له مقالات أدبية وفكرية وقصص قصيرة في عدد من الصحف العربية مثل "**الحياة**"، و"**الشرق الأوسط**"، و"**العرب**"، و"**القدس العربي**"، كما نُشرت أعماله في مجلات أدبية متعددة مثل "**الآداب**" "اللبنانية، و"**الكرمل**"، و"**الناقد**" "التي كان يصدرها رياض الريس في لندن.

.10

منشورات «ألف باء AlfYaa»